أحاديث فضل المدينة

دراسة بلاغية في الصحيحين

إعداد

أ.د / الدسوقي محمد أبو غرارة

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية (بنين) بدسوق

١٤٤١هـ = ٢٠٢٠م

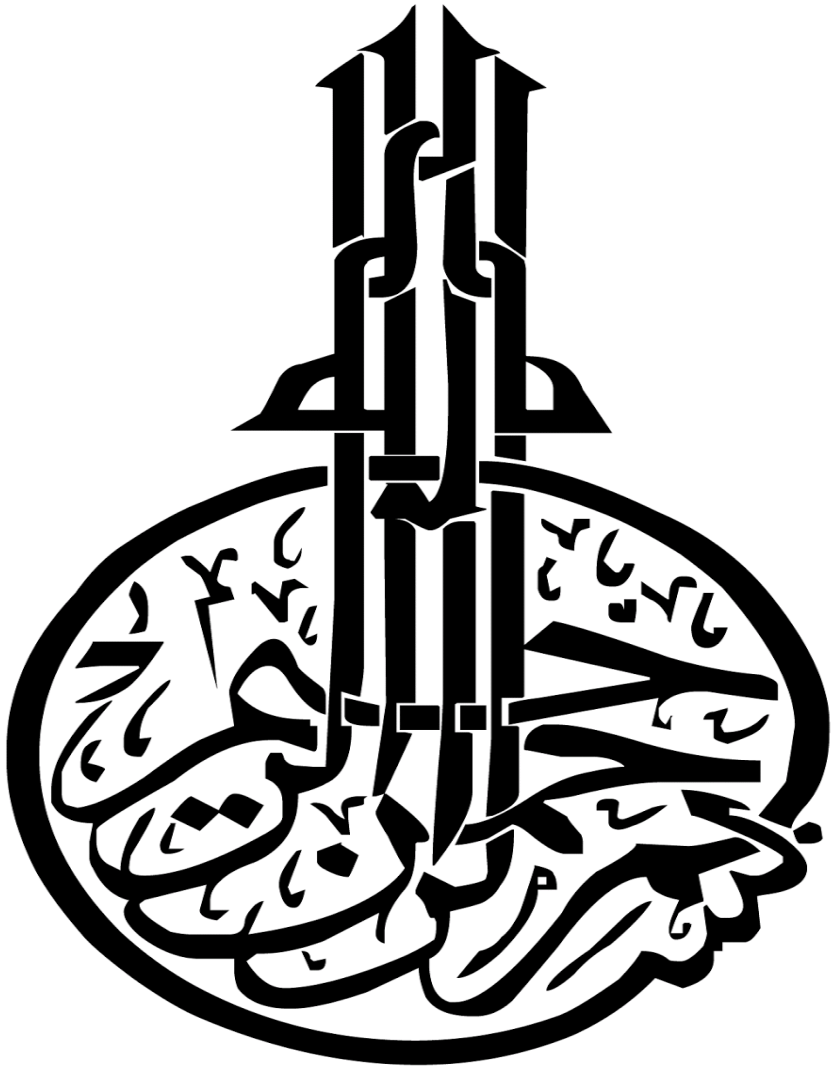

أحاديث فضل المدينة دراسة بلاغية في الصحيحين

الدسوقىٰ محمد الدسوقي أبو غرارة
قسم البلاغة والنقد ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين ، جامعة الأزهر، دسوق، جمهورية مصر العربية.
البريد الإلكتروني:
Eldesouky abo gharara215.el@azhar.edu.eg

الملخص

هذا بحث يتعلق بدراسة الأحاديث الواردة في الصحيحين عن فضائل المدينة المنورة دراسة بلاغية،وقد قسمت هذه الفضائل إلىٰ مقامات، وأثبت تحت كل مقام حديثا من الصحيحين كاشفا عن غرضه ومقامه،ثم قمت بدراسته دراسة بلاغية معتمدا علىٰ المنهج التحليلىٰ الذىٰ يعتمد النظرة الشمولية في النص، قاصدا استخراج الأسرار البلاغية الكامنة فيه وتجليتها

وقد ركزت فيه علىٰ الفضائل الأم الواردة فىٰ الصحيحين، وجعلت منها تسع مقامات ،مع الإشارة إلىٰ الفضائل الأخرىٰ الواردة في البيان النبوىٰ من خلال عقد الموازنات بين الأحاديث، والجمع بين الروايات المتعددة فىٰ المعنىٰ الواحد،وبيان مناسبة كل حديث لمقام ،وكيف اقتربت لغة بيانه _صلىٰ الله عليه وسلم_،أو اختلفت بحسب السياق والمقام

الكلمات المفتاحية: بلاغة_ البيان النبوىٰ_ فضل المدينة _دراسة فىٰ الصحيحين.

Hadiths of the Madena preferred of ... rhetorical study in the two right books.

Eldesouky mohamad eldeusouky abo gharara
department of eloquence and criticism in the arab and islamic faculty for boys .desouq
Email: ELdesoukyabogharara215.el@azhar.edu.eg

Abstract:

This research deals with the advantages if Madena as nentioned in the two right books of the prophet sayings ..eloquence study according to analytical method which depend on the overall view of the text in order to get the hidden eloquence secrets and analyse them.

I focused on the advantages which were mentioned in the two right books of the prophet sayings ,refering to the other advantages in the so many sayings of the prophet and the various stories with the same meaning.

Every saying was classified according to the eloquence ,history and consequences of it according to time of narrating it and how were they similar or different according to the context and time of saying.

Keywords :(eloquence,prophet statements,advantages of Madena ,a study in the two right books of the prophet sayings)

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، شرَّف دار هجرته (ﷺ) ، وأثنىٰ علىٰ أهلها في الذكر الحكيم ، فقال : ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1] ، والصلاة والسلام علىٰ خير من وطأ الأرض بقدميه الشريفتين ، وسكن أفضل بقاعها ، بعد أن أذن له ربه (ﷻ) ، وأراه دار هجرته ، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلىٰ آله وصحبه الذين شرفهم الله بالعيش معه في رحاب مدينته ، فكان ذلك مثار فخرهم ، وفخر التابعين وتابعي التابعين من بعدهم إلىٰ يوم الدين والجزاء .

وبعـــــد ،،،

فمعلوم أن المدينة المنورة هي دار هجرته، ومستقر دعوته (ﷺ)، هاجر إليها بعد أن ناصبه أهل مكة العداء فلم ينصروه، وخذله أهل الطائف فطردوه، فأراه الله دار هجرته ، وأخبره بأنها سهل بين حرتين فكانت المدينة المنورة ، وكان نزوله (ﷺ) بأرضها تشريفا لها ولأهلها يَتِيهُون به فخرا علىٰ غيرهم من أهل بقاع الأرض إلىٰ يوم الدين .

أحب النبي(ﷺ) أرضها ، وأحب أهلها ، ودعا لهما بالبركة، وحث علىٰ سكناها والعيش في رحابها ، وحذر من إحداث الفتن بها، أو إرادة أهلها بشر أو بسوء ، وزادها الله تشريفا بوفاته (ﷺ) بها ، واحتواء أرضها الطيبة لجسده الطاهر، وتخصيصها بأفضل المساجد علىٰ وجه الأرض بعد المسجد الحرام ، وغير ذلك العديد من الفضائل التي أكدتها جملة من الأحاديث الشريفة، ـ فزادت من

---

(١) سورة الحشر، الآية :٩.

تعلق القلوب بها ، والحنين والشغف الدائم إلىٰ زيارتها ، وقد لفتت تلك الخصوصيات والفضائل التي أثبتها النبي(ﷺ) لهذه البقعة المباركة انتباهي ، فكانت دافعا لي نحو التفكير في دراسة هذا الجانب من بيانه (ﷺ) ، دراسة بلاغية تكشف عن شيء من سمت بنائها ووجوه بلاغتها ، وإبراز لطائفها وخصائصها ، وبيان دورها في إثراء ما حفلت به من معانٍ، فجعلتُ عنوان هذه الدراسة:(**أحاديث فضل المدينة دراسة بلاغية في الصحيحين**) .

وهذا البحث لم يقصد إلىٰ استيعاب جميع الأحاديث الواردة في فضل المدينة بالدراسة، فمثل هذا غاية تقصر عن تجليتها مثل هذه البحوث القصيرة التي تتطلب الإيجاز؛ نظرا لطبيعتها ، وما يقتضيه نشرها من كلفة مادية ، ولعل هذا هو الذي دفعني إلىٰ اقتصار هذه الدراسة علىٰ الأحاديث الواردة في الصحيحين مع الحرص علىٰ الوقوف علىٰ المعاني الأم لتلك الفضائل التي يندرج غيُرها في مضمونها ، وتحت طيَّاتها .

أما عن منهجي في تلك الدراسة : فقد قسمتُ تلك الأحاديث التي اشتملت علىٰ تلك الفضائل إلىٰ مقامات ، وأثبتتُ تحت كل مقام حديثا من الصحيحين ، كاشفا عن غرضه ومقامه ، مع القيام بدراسته دراسة بلاغية، معتمدا المنهج التحليلي الذي يعتمد علىٰ النظرة الشمولية في النص، قاصدا استظهار الأسرار البلاغية الكامنة فيه، وتجليتها وإبراز دورها في إثراء المعنىٰ الذي يقصده (ﷺ)، وجدير بالذكر أنني أثناء التحليل لم تغفل عيني عن الأحاديث الأخرىٰ الواردة في غير الصحيحين ، فكنت أشير إليها عندما يقتضي المقام الموازنة بين الأحاديث ، والجمع بين الروايات المتعددة في المعنىٰ الواحد ، وبيان مناسبة كل حديث لمقامه ، وكيف تقاربت لغة بيانه (ﷺ) أو اختلفت، بحسب ما يقتضيه السياق والمقام .

كما تطرقتُ أحيانا إلىٰ الإشارة الخفيفة إلىٰ بعض أقوال العلماء التي كانت تلك الأحاديث محلا لاستنباطهم لبعض الآراء والأحكام الفقهية ، مع محاولة ربط هذه الأحكام بالمدلول البلاغي لمفردات الحديث، وجمله، وتراكيبه.

هذا وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يأتي في مقدمة، وتسعة مقامات، جمعتها تحت عنوان وهو: (مقامات أحاديث النبي صلىٰ الله عليه وسلم في فضل المدينة في الصحيحين)، وخاتمة، ثم أردفت ذلك بالفهارس الفنية المتنوعة.

١-**أما المقدمة**: فتحدثت فيها بإيجاز شديد عن فكرة الدراسة، والدافع إليها، والمنهج الذي سرت عليه في تناولها، وخطة هذا البحث.

٢-**مقامات أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في فضل المدينة في الصحيحين**، وقد جاءت كالآتي:

- **المقام الأول**: بيان حرمة المدينة المنورة.
- **المقام الثاني**: المدينة المنورة ملجأ الإيمان.
- **المقام الثالث**: دعاؤه (ﷺ) بالبركة للمدينة.
- **المقام الرابع**: المدينة لا يدخلها الدجال.
- **المقام الخامس**: المدينة تنفي شرارها .
- **المقام السادس**: تحذيره (ﷺ) من إحداث الحدث بالمدينة، أو إيواء محدثه.
- **المقام السابع**: تحذيره (ﷺ) من إرادة أهلها بالسوء.
- **المقام الثامن**: جزاء الصبر علىٰ لأواء المدينة وشدتها .
- **المقام التاسع**: فضل بعض الأماكن فيها .

٣-**ثم الخاتمة**، وأوجزت فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

٤-**ثم أردفت ذلك بالفهارس الفنية المتنوعة**، واقتصرت علىٰ:

أ – فهرس المصادر والمراجع.

ب – فهرس الأحاديث النبوية التي اعتمدتْ عليها الدراسة في التحليل البلاغي.

جـ – فهرس الموضوعات.

وجدير بالذكر أن جمعا من العلماء عمدوا إلىٰ جمع الأحاديث المتعلقة بفضائل المدينة وإفرادها بمؤلفات مستقلة، منها ما توصلت إليه، ومنها ما لم أستطع الوصول إليه ، ومما توصلت إليه :

١–سبل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد ، للشيخ / محمد بن يوسف الصالحي الشامي (ت: ٩٤٢ هـ)، وقد خصص في فضائل المدينة جزءا من هذا الكتاب ، وأسماه : (جماع أبواب بعض فضائل المدينة الشريفة) [(١)] .

٢–الأحاديث الواردة في فضل المدينة جمعا ودراسة ، إعداد : الدكتور/ صالح بن حامد بن سعيد الرفاعي [(٢)] .

٣–التحفة الذكية في فضائل المدينة النبوية ، للدكتور / عبد الرحمن عبد الحميد البر [(٣)] .

والدراستان السابقتان ارتكزتا علىٰ جمع الأحاديث وتوثيقها ، وبيان درجة صحتها وضعفها ولم تلتفت إلىٰ دراسة شيء من تلك الأحاديث من الجانب البلاغي أو اللغوي .

---

(١)الناشر : المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ط١ .

(٢) الناشر : دار الخضيري ، الطبعة الثانية ، ١٤١٥ هـ – مجمع الملك فهد لطباعة المصحف ، ومركز خدمة السنة والسيرة النبوية – المدينة المنورة .

(٣) الناشر : دار اليقين للنشر والتوزيع ، ط١ ، ١٤٣١ هـ – ٢٠٠٠ م .

وبعد: فلست أدعي لبحثي هذا الكمال، فالكمال لله وحده، وحسبي أني حاولت أن أقتبس من نور بيانه (ﷺ)، وقد بذلت قدر طاقتي في إعداده، فما كان فيه من توفيق فمن الله – وحده – وما كان فيه من تقصير فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباحث

د / الدسوقي محمد أبو غرارة

الأستاذ المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق

مقامات أحاديث النبي (ﷺ) في فضل المدينة في الصحيحين

المقام الأول: بيان حرمة المدينة المنورة

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ (رضي الله عنه)، عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ): «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ ودَعَا لَهَا، وحَرَّمْتُ المَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، ودَعَوْتُ لَهَا فِي مُدِّهَا وصَاعِهَا مِثْلَ مَا دَعَا إِبْرَاهِيمُ (عليه السلام) لِمَكَّةَ»[1].

إن حُرمة المدينة تعد من أعظم المناقب التي حظيت بها من رسول الله (ﷺ)، وقد أكد النبي (ﷺ) علىٰ تلك الحرمة في أحاديث متعددة، فعن سهل بن حنيف (رضي الله عنه) قال: ((أَهْوَىٰ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) بِيَدِهِ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: ((إِنَّهَا حَرَمٌ آمِنٌ))[2]، وفي رواية سئل عن المدينة، فقال: ((حَرَامٌ أَمْنًا، حَرَامٌ أَمْنًا))[3]، و"حرمة المدينة وتعظيم شأنها، والحفاظ علىٰ أمر الدين فيها من ضروريات الدين؛ لأن مكة بحرمها كانت ومازالت مأوىٰ المؤمنين، وهي دار السلم والسلام،... ولما ضيق علىٰ المسلمين في بادئ الأمر، واضطروا إلىٰ الخروج إلىٰ مكان آمن كانت المدينة، ولما هاجر المسلمون إلىٰ المدينة، وانتقل النبي (ﷺ) بالدعوة إلىٰ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب بركة صاع النبي (ﷺ)، رقم(٢٠٢٢). تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ

(٢) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب الترغيب في سكنىٰ المدينة والصبر علىٰ لأوائها، رقم(١٣٧٥). تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل ،حديث سهل بن حنيف رضىٰ الله تعالىٰ عنه، ٣/ ٤٨٥، رقم(١٦٠١٩)، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين، تحقيق: شعيب الأرناؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م

المدينة أصبحت المدينة آنذاك عوضا لهم عن مكة، وأصبحت العاصمة للعالم الإسلامي كله يفد إليها الناس من مشارقها ومغاربها، فكان لزامًا أن يبقىٰ الدين، كما كان علىٰ عهد رسول الله (ﷺ)حتىٰ إذا أتىٰ آت من الآفاق وأراد أن يأخذ أحكام الدين وجدها نقية عن أي الشوائب والعلائق " [1].

ومقام هذا الهدي النبوي محل الدراسة هو إخبار من النبي (ﷺ) عن تحريمه للمدينة ودعائه لها اقتداء بخليل الله إبراهيم (عليه السلام) في تحريم مكة والدعاء لها، وهذا فيه من الفضل للمدينة ما فيه.

والحديث يغلب علىٰ بنائه طابع الأسلوب الخبري ،مما يتوافق مع مقام الإخبار الذي هو مقصوده (ﷺ).

واللفتة البادية في بنائه أيضًا هو اتخاذه (ﷺ) لأسلوب القياس في تحريم المدينة، ومن هنا كانت الدقة النبوية في بدئه بجملة (إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها) ليمهد من خلالها إلىٰ مقصوده وغرضه، وهو (تحريم المدينة)، فإذا كان إبراهيم (عليه السلام) خليل الله، ورافع قواعد البيت الحرام حرَّم مكة، فكذلك حرَّم النبي الكريم تلك البلدة التي آوته ونصرته وانطلقت منها هداية السماء إلىٰ أرجاء الدنيا.

وفي بدء الحديث بتلك التهيئة فيض عظيم من الإجلال والتقديس لتلك الحرمة وبلاغة عالية في إثباتها والتوكيد لها، و بيان عن أنها لا تقل في حرمتها عن حرمة مكة، وحث بليغ علىٰ التزام تلك الحرمة، وعدم تجاوزها أو التهاون بها، بالقياس إلىٰ احترام العرب ، وقدسيتهم حتىٰ وهم أهل جاهلية – لحرمة مكة.

---

(١) شرح بلوغ المرام، عطية بن محمد سالم (المتوفىٰ : ١٤٢٠ هـ): ٨/ ١٧١ ، المفاضلة بين مكة والمدينة ، مصدر الكتاب : دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية: http://www.islamweb.net

[الكتاب مرقم آليا، المكتبة الشاملة].

ومن هنا جعل النبي(ﷺ)جملة (وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة) عقب جملة (إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها) فجعل تحريمه للمدينة في صورة المشبه، وتحريم إبراهيم (عليه السلام)لمكة في صورة المشبه به؛ وذلك لأن الغالب بلاغيا أن يقاس ما هو مجهول علىٰ ما هو معلوم وأن يكون وجه الشبه أتم وأوضح في المشبه به من المشبه.

ويزداد هذا الفيض من الإجلال والتعظيم والتقديس لتحريمه (ﷺ) للمدينة بمراعاة ما جاء في بيانه من أحاديث أخرىٰ تؤكد أن تحريم إبراهيم (عليه السلام) لمكة إنما هو من تحريم الله لها في الأصل، كما جاء في صحيح مسلم من قوله(ﷺ): ((إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ..))[1]، وفي حديث آخر في فتح مكة : ((إِنَّ هَذَا البَلَدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللهِ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ)) [2] .

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم(١٠٤)، وفي كتاب الإحصار وجزاء الصيد، باب لا يعضد شجر الحرم، رقم(١٧٣٥)، وفي كتاب المغازي، باب منزل النبي(ﷺ) يوم الفتح، رقم(٤٠٤٤)، وسنن الترمذي كتاب الحج عن رسول الله(ﷺ) ، باب ما جاء في حرمة مكة، رقم(٨٠٩) تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي – مصر،الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م، وسنن النسائي كتاب مناسك الحج، باب تحريم القتال فيه، رقم(٢٨٧٦)، قال الشيخ الألباني: صحيح. تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ – ١٩٨٦.

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الجزية والموادعة، باب إثم الغادر للبر والفاجر، رقم(٣٠١٧)

وقد اجتهد العلماء في التوفيق بين تلك الأحاديث الدالة علىٰ تحريم الله (ﷻ) لمكة تارة ، ونسبة هذا التحريم لإبراهيم (عليه السلام) تارة أخرىٰ، فذكروا أنه لا تعارض بينها؛ لأن معنىٰ قوله: (إن إبراهيم حرم مكة) ، أي أعلن تحريمها، وعرَّف الناس أنها حرام بتحريم الله إياها ، فلمَّا لم يعرف تحريمُها إلا في زمانه علىٰ لسانه أضيف إليه، وذلك كما في قوله تعالىٰ:﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[1] ، فأسند إليه – سبحانه – التوفي، وفي أخرىٰ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾[2] فأسند التوفي إليه التوفي، وقال في آية أخرىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾[3] ... فأسند إليها التوفي، وفي الحقيقة المتوفي هو الله (ﷻ) وأسند إلىٰ غيره؛ لأنه ظهر علىٰ أيديهم[4].

موازنة وفروق:

وقد صرَّحت رواية ابن ماجة بنسبة تحريم مكة إلىٰ الله (ﷻ) صراحة، وجريان هذا التحريم علىٰ لسان نبي الله إبراهيم (عليه السلام)، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي(ﷺ) قال: ((اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُكَ ونَبِيُّكَ، وإِنَّكَ حَرَّمْتَ مَكَّةَ عَلَىٰ لِسَانِ إِبْرَاهِيمَ، اللَّهُمَّ وأَنَا عَبْدُكَ ونَبِيُّكَ، وإِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا)) [5].

---

(١) سورة الزمر، جزء من الآية:٤٢.

(٢) سورة السجدة، جزء من الآية:١١.

(٣) سورة النحل ،جزء من الآية:٣٢.

(٤) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني : (١٤/ ٤٢٣)، دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(٥)سنن ابن ماجه، كتاب المناسك، باب فضل المدينة، رقم(٣١١٣)، قال الشيخ الألباني: صحيح. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسىٰ البابي الحلبي.

والسؤال: لماذا لم يُسند النبي (ﷺ) تحريم المدينة إلىٰ الله (ﷻ) صراحة كما جاء في الأحاديث التي صرَّحت بذلك، وأسند التحريم إلىٰ إبراهيم (عليه السلام) في الحديث محل الدراسة؟.

أقول: إن إسناد التحريم إلىٰ إبراهيم (عليه السلام)في هذا الحديث أدب راق منه (ﷺ)، وبلاغة نبوية عالية؛ لأنه بصدد الإخبار عن تحريمه للمدينة بالقياس علىٰ تحريم الخليل إبراهيم لمكة، فلم يكن من الأدب الذي يليق بسمت النبوة، ولم يكن من البلاغة التي فُطِر عليها لسانه (ﷺ) أن يجعل من نفسه معادلا لتحريم الله (ﷻ) ، أدبا وتوقيرا وإدراكا واعيا منه (ﷺ) للفرق بين مقام الألوهية، ومقام النبوة، ولذا لم أقف علىٰ أيَّة رواية جعل فيها النبي (ﷺ) تحريمه للمدينة كتحريم الله لمكة ، ما عدا رواية ابن ماجه السابقة، وفيها – أيضا – يتجلىٰ بيان النبوة ، ويفيض بالأدب العالي ؛ حيث مهَّد النبي (ﷺ) لمطلوبه، ففيها تظهر لغة الثناء والتمجيد لله بادية جلية بالاعتراف بالعبودية، وإظهار امتنان الله عليه بالنبوة، والتمهيد البالغ لمطلوبه (ﷺ) بافتتاح كلامه بالدعاء بصيغة (اللهم) المفعمة بالدلالة علىٰ قرب الداعي من مدعوِّه، والتمجيد والثناء عليه، وتكرار تلك الصيغة زيادة في التضرع، والإقبال، و فيها تظهر لغة الثناء علىٰ نبي الله إبراهيم (عليه السلام) باتخاذه خليلا ونبيا، ثم الاعتراف بالعبودية الصريحة (وأنا عبدك)، هكذا بضمير التكلم الناطق بالعجز والخضوع والامتثال، كل هذا تمهيد جيد وبالغ منه(ﷺ)؛ لأن يجعل تحريمه للمدينة بقوله: (وإني أحرِّم ما بين لابتيها) مقابلا لتحريم الله بقوله: (وإنك حرمت مكة).

وبالتأمل في العبارتين تفوح مرة ثانية معاني الأدب والوقار جلية، فالنبي الكريم لم يعبر عن تحريمه للمدينة بأسلوب التصريح، بل أظهر ذلك المعنىٰ في

ثوب الكناية عن نسبة، فتحريم ما بين لابتي المدينة [1]، لا شك أنه تحريم للمدينة كلها.

يضاف إلىٰ ذلك: أنه (ﷺ) لم يصرح بلغة التشبيه فلم يقل: وإني أحرم ما بين لابتي المدينة كما حرمت مكة، ولا تنس فطنة النبوة العالية بذكر إبراهيم (عليه السلام) في جملة (وإنك حرمت مكة علىٰ لسان إبراهيم) وكأنه (ﷺ) أراد أن يتخذ من جملة (علي لسان إبراهيم) مدخلا لتحقيق مرغوبه من ربه ، أضف إلىٰ ذلك أنه (ﷺ) لم يعبِّر بضمير التكلم (وأنا أحرم...) كما عبر به في جملة (وأنا عبدك ونبيك) الناطق بالعبودية والثناء علىٰ الله (ﷻ) ، بل عبَّر عن إرادة التحريم بالضمير في ثوب ياء المتكلم مقترنة بـ (إن) التوكيدية مما يتناسب مع مقام الضراعة والابتهال إلىٰ الله (ﷻ) لتحقيق مطلوبه، فسبحان من أدب نبيه (ﷺ) ، وجعل تلك البلاغة الثرة تجري علىٰ لسانه دون تصنع أو تكلف، ولله در الرافعي (رحمه الله) حين وصف تلك البلاغة المحمدية بقوله: " هي البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآياتها وحسرت العقول دون غاياتها، ولم تصنع، وهي من الإحكام، كأنها مصنوعة، ولم يتكلف لها، وهي علىٰ السهولة بعيدة ممنوعة "[2].

---

(١) اللابة : الحرة ، وهي الأرض التي قد ألبستها حجارة سود، واللابة الأولىٰ : ما يحدها من جهة الشرق ، الحرة الشرقية، واللابة الأخرىٰ : هي الحرة الغربية ، والحرتان : داخلتان في حرم المدينة ، ينظر : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي: ٩/ ١٣٦ ، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢ هـ . وينظر : وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفىٰ للسمهودي :١/ ٩١ ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤٠٤ هـ .

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، للأستاذ / مصطفىٰ صادق الرافعي : (ص:٢١٩) ، ط ١ ، دار المنار – مكتبة فياض – ط الأولىٰ – ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م .

وبمعاودة التأمل في الجملة الأولىٰ من بيانه (ﷺ) نلحظ طابع الإيجاز، فلم يكشف النبي (ﷺ) عن مظاهر تحريم مكة ، وقد أبانت أحاديث أخرىٰ عنها ، ومنها ما جاء في قوله:((فَلاَ يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلاَ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً))[1] وغير ذلك مما ورد في حرمة مكة، كما أجمل في جملة (ودعا لها)، الذي صرَّح به القرآن الكريم في أكثر من آية من دعاء إبراهيم (عليه السلام) لمكة، ولعل السرَّ في أنه (ﷺ) سلك مسلك الإيجاز في تلك الجملة الأولىٰ من بيانه هو أنه لم يقصد بيان هذا التحريم وتفصيله؛ لأن مقصده الأهم هو قياس تحريمه للمدينة علىٰ تحريم إبراهيم(عليه السلام) مكة، "واتجاه الكلام نحو مقصوده، وما انعقد عليه يورثه جزالة، ويوفر انتباه السامع، فلا يشغل بغير هذا الغرض "[2].

كما نلحظ أنه (ﷺ) أكد الجملة الأولىٰ من بيانه(إن إبراهيم حرم مكة) مع أن السامعين يعلمون بحرمة مكة ،وهو أمر معلوم لا ينكر، ولعل ذلك رغبة منه (ﷺ) في أن يتخذ من هذا الاستفتاح المثير من التأكيد بـ(إن) رغبة في تقوية مضمون كلامه وتقريره في النفوس؛ ليتخذ منه وسيلة لإثارة انتباه السامعين لما هو بصدد إعلامهم به، وهو تحريمه للمدينة قياسا علىٰ تحريم إبراهيم لمكة، في حين أنه (ﷺ) ألقي بجملته التي هي مقصوده من الحديث (وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة) خالية من التوكيد،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الإحصار وجزاء الصيد، باب لا يعضد شجر الحرم، رقم(١٧٣٥)، وصحيح مسلم كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد علىٰ الدوام، رقم(١٣٥٤).

(٢)شرح أحاديث من صحيح البخاري د/ محمد أبو موسي: (ص ٣٠٢) ، مكتبة وهبة. ط أولىٰ ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

وذلك إما تناسبا مع حال السامعين في خلو أذهانهم من مضمون الخبر، ويكون ذلك الحديث مما سبق به بيانه (ﷺ) في إعلان تحريم المدينة علىٰ غيره من الأحاديث الواردة في المعنىٰ نفسه، أو تلاؤما مع قياس ما هو غير مؤكد وغير معلوم بما هو مؤكد ومعلوم.

وبالتأمل في العديد من جملة الأحاديث الواردة في حرمة المدينة نلحظ أنه (ﷺ) ساقها مؤكدة بأم أدوات التأكيد علىٰ غير نهجه في التعبير في الحديث محل الدراسة، ومن ذلك ما جاء عند أحمد ((اللَّهُمَّ إِنِّي أُحَرِّمُهَا بِحُرَمِكَ، أَنْ لَا يُؤْوَىٰ فِيهَا مُحْدِثٌ، وَلا يُخْتَلَىٰ خَلاهَا، وَلا يُعْضَدُ شَوْكُهَا، وَلا تُؤْخَذُ لُقَطَتُهَا إِلا لِمُنْشِدٍ))[1]. وعند مسلم : ((إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا، لَا يُقْطَعُ عِضَاهُهَا، وَلَا يُصَادُ صَيْدُهَا)) [2] وعنده أيضا عن سعد بن أبي وقاص قال رسول الله (ﷺ) :((إِنِّي أُحَرِّمُ مَا بَيْنَ لَابَتَيِ الْمَدِينَةِ أَنْ يُقْطَعَ عِضَاهُهَا، أَوْ يُقْتَلَ صَيْدُهَا))[3] .

وهكذا تتعدد الأحاديث التي أخذت طابع التأكيد علىٰ حرمة المدينة طابعا جليا، ولعل السر في ذلك هو التناسب مع مقام الدعاء كما في الحديث الأول، فكان التأكيد وسيلة نبوية لإظهار كمال التضرع والابتهال إلىٰ الله (ﷻ)، وكذلك تلاؤما مع مقام سرده (ﷺ) في جميعها لصور هذا التحريم ومظاهره ، من عدم إيواء محدث فيها، أو صيد صيدها، أو عضد شوكها وغير ذلك مما أبان عنه، فكان هذا التأكيد بثًّا للتهديد والوعيد في النفوس، وتحذيرا قويا من مخالفة هديه، بارتكاب تلك المحرمات، والتعدي علىٰ حرمة المدينة بأي منها.

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل (٥/ ٩٠).

(٢)صحيح مسلم كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي (ﷺ) فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمها، رقم(١٣٦٢).

(٣)صحيح مسلم كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي(ﷺ) فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمها، رقم(١٣٦٣).

وبالعودة إلىٰ الحديث محل الدراسة أجد أن الجملة الأولىٰ من بيانه إذا كانت أخذت طابع الإيجاز؛ اتجاها بالكلام نحو ما انعقد عليه، ومقصوده الأهم، فإن لغته (ﷺ) أخذت طابع البسط والتفصيل في إخباره عن حرمة المدينة ودعائه لها ؛ حيث كشف عن كل معنىٰ بجملة خاصة متبوعةٍ بتأكيد معناها بالتشبيه، فقال: (وحرمت المدينة كما حرَّم إبراهيم مكة) ،وقال: (ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم(عليه السلام) لمكة)، وكان من الممكن أن يوجز (ﷺ) الجملتين في جملة واحدة، فيكون بداية الكلام متناغما مع بناء الجملة الأولىٰ، ويقول:(إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها وحرمت المدينة ودعوت لها)، ولعل مقصده (ﷺ) من ذلك التفصيل هو التأكيد علىٰ كل أمر من التحريم والدعاء علىٰ حدةٍ ، حبا منه (ﷺ) للمدينة، فضلا عما أضفاه هذا التفصيل من تأكيد المعنىٰ وتثبيته في النفوس والتفاعل مع مضمون كلامه (ﷺ) لما أضفاه من إثارة وتشويق إلىٰ المعنىٰ " فالتحول أو الانحراف عن النسق المثالي للتعبير يحدث نوعا من الإثارة لدىٰ المتلقي نتيجة التضاد الناجم عن الاختلاف الحادث من اختراق النظام، وهو اختلاف غير متوقع لدىٰ القارئ؛ ولذلك يحدث لديه لون من المفاجأة والإثارة" [1].

وكان من أثر هذا التفصيل أيضًا عدة مظاهر بلاغية منها:

❖ تكرار جملة التشبيه عقب كل جملة (كما حرم إبراهيم مكة) و(مثل ما دعا إبراهيم لمكة) وهذا آكد في تحقيق التحريم، ورجاء تحقق الدعاء ، وما وراءه من بركات وخيرات للمدينة .

---

(١) استثمار الأسلوب العدولي في تذوق النص الأدبي ، د/ عيد محمد شبايك : (ص:٣) ، مجلة كلية الآداب – جامعة المنوفية – العدد ٨ يناير ٢٠٠٤ م .

❖ كما مكن هذا التفصيل من وضع الظاهر موضع المضمر في موضعين؛ إذ مقتضىٰ الظاهر أن يقول : وحرمت المدينة ودعوت لها كتحريمه ودعائه لها" بعود الضمير علىٰ إبراهيم ومكة لسبق التعبير بهما، وفي التعبير بالمظهر هنا توكيد لمضمون كلامه (ﷺ)وزيادة تحقيق له وتثبيت في النفوس، وفيه إجلال من رسول الله (ﷺ)لخليل الله إبراهيم (عليه السلام) بتردد ذكر اسمه علىٰ لسانه ، وفيه أيضا فيض غامر من حبه (ﷺ)لمكة ؛ إذ كانت أحب البلاد إلىٰ قلبه.

❖ ما حققه هذا التفصيل من دعائه(ﷺ) للمدينة بقوله: (ودعوت لها في مدها وصاعها)، وذلك مبالغة في وفرة الخير للمدينة وتحصيل البركات فيها، وذلك عن طريق المجاز المرسل لعلاقة المحلية ؛ حيث أطلق المحل (المد والصاع) وأراد ما فيهما من حبوب وغلال، وزيادة في المبالغة جعل مدخول المد والصاع حرف الظرفية(في)، وكأنَّ الدعاء في المد والصاع ذاته؛ مما جعله يفيض بالخير والبركة تبركا بدعائه (ﷺ) .

❖ يضاف إلىٰ ما سبق ختم الحديث بهذا اللون البديعي (الإرصاد) ، فقوله (ﷺ): (كما دعا إبراهيم) ينبئ بعدَ الإحاطة بما تقدم أن الختام بقوله بـ (مكة)، وهذا مما أعطي الحديث في مجمله شكلا جماليًا، وكأنه جملة واحدة تتشابه مفرداتها، وتتعانق معانيها، ويسلم بعضها إلىٰ بعض في نظم رائع يأسر النفوس، ويسترعي الانتباه، ويلفت الآذان ،ويستولي علىٰ الأفهام، فكان بيانه (ﷺ) في غاية البلاغة الناطقة بالحسن والانسجام، ومعلوم أن من سمات جودة الكلام أن يعينك أوله علىٰ استشراف آخره حتىٰ قيل:" وإن بلغ أن تكون موارده تنبيك عن مصادره، وأوله يكشف قناع آخره، كان قد جمع نهاية الحسن وبلغ أعلىٰ مراتب التمام"[1].

---

(١) الصناعتين ، أبو هلال العسكري : (ص: ١٤١) ، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – بيروت، عام النشر: ١٤١٩ هـ.

المقام الثاني : المدينة المنورة ملجأ الإيمان.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ(رضي الله عنه) ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) ، قَالَ:((إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى المَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا))[1] .

ومقام الحديث إخباره (ﷺ) بخصوصية عظيمة، وفضيلة كبيرة للمدينة المنورة، تتيهُ بها علىٰ غيرها من بقاع الأرض، وهي أروز الإيمان ورجوعه وارتداده إلىٰ أرضها، كما تأرز الحية بعد سيرها في الأرض، بحثا عن طعامها، وبعد أن يلفحها هجير الحر إلىٰ جحرها مرة ثانية.

وهذه الخصوصية التي أثبتها هذا الهدي النبوي للمدينة كاشفة عن أن المدينة هي دار الإسلام، ومحل الإيمان، وموطن الأمن والسكينة ، منها انطلق وانتشر في بقاع الأرض، وستظل كذلك حتىٰ آخر الزمان.

قال عياض: " ومعناه: أن الإيمان أوَّلاً وآخراً بهذه الصفة؛ لأنه في أول الإسلام كان كل من خلص إيمانه، وصح إسلامه أتىٰ المدينة، إمَّا مهاجراً مُسْتوطنًا لها، وإما متشوفًا ومتقربًا إلىٰ الله تعالىٰ لرؤية النبي (ﷺ) ومتعلمًا منه، ومتبركًا بلقياه، ثم بعده هكذا في زمان "[2]. أي في أزمنة الصحابة، والتابعين، وتابعيهم حتىٰ زماننا ، فمازالت النفوس المؤمنة، والقلوب الخاشعة تهفوا اشتياقًا وحنينًا إلىٰ المدينة.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب الإيمان يأرز إلىٰ المدينة، رقم(١٧٧٧)، وصحيح مسلم كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا وإنه يأرز بين المسجدين، رقم(١٤٧).

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض : (١/ ٤٥٧) ، تحقيق: الدكتور يحْيَىٰ إِسْمَاعِيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

والسمة البلاغية التي غلبت علىٰ طابع نظم هذا الحديث هي التأكيد سواء كان من خلال ما اشتمل عليه من مؤكدات لفظية، أو ما أضفته الصور البيانية التي اشتمل عليها من تأكيد مقصده (ﷺ) وإبراز مضمونه وتقريره.

وأول ما يظهر من المؤكدات اللفظية ما جاء في مطلعه من التأكيد بـ (إن) وتأكيد خبرها باللام (ليأرز) بهذا الاستفتاح اللافت، مما يشكِّل مطلعا قويا واستفتاحا ملفتا ، قصد به النبي (ﷺ) تأكيد هذا الخبر، وتحقيق مضمونه في النفوس، وبخاصة أنه يتعلق بمعنىٰ جليل، وبيان فضيلة عظيمة للمدينة، فصاغه لسان بيانه (ﷺ) صياغة حافلة تتناسب مع مضمونه، وتتناسب –أيضا– مع كون هذا المعنىٰ يرتبط بشيء غيبي، ويعد من نبوءاته (ﷺ) ، ومثل تلك المعاني تحتاج إلىٰ تقرير وتوكيد .

ومن المؤكدات أيضا ما أضفاه تقديم المسند إليه(الإيمان) علىٰ خبره الفعلي (ليأرز) من زيادة تقرير للمعنىٰ وتوكيد له؛ لأنه بمثابة تكرار إسناد (أروز الإيمان) إلىٰ (المدينة) مرتين ، مرة إلىٰ الاسم الظاهر (الإيمان)، ومرة إلىٰ ضميره المستتر العائد عليه ، وهذا مما يؤكد فاعلية الإيمان، وأنه هو الدافع والمحرك للعبد نحو شغف قلبه، وتعلق نفسه بالمدينة، وتجدد حنينه الدائم إليها ، وهذا الحس يستشعره كل من زارها، وهذا التكرار في الإسناد هو منشأ التوكيد، وقد أبان الإمام عبد القاهر (رحمه الله) عن بلاغة هذا الأسلوب، وأثره في تمكين المعنىٰ وتقريره في النفوس بقوله: " فإن ذلك من أجل أنه لا يُؤتىٰ بالاسم مُعَرَّىً منَ العوامل إلاَّ لحديثٍ قد نُويَ إسنادُه إليه، وإِذا كان كذلك، فإذا قلت: "عبد الله"، فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردتَ الحديثَ عنه، فإِذا جئتَ بالحديث فقلت مثلاً: "قامَ" أو قلتَ: "خرجَ"، أو قلتَ: "قَدِمَ" فقد علم ما جئتَ به وقد وطَّأْتَ له وقدَّمتَ الإِعلام فيه، فدخلَ علىٰ القلب دُخولَ المأنوسِ به، وقبله

قبول المهيَّأ له المطمئنِّ إليه، وذلك لا محالة أشد لثبوته، وأتقىٰ للشُّبهة، وأَمنعُ للشكَّ، وأدخلُ في التَّحقيق. وجملة الأمر أنه ليس إعلامُك الشيءَ بغتة غُفلًا، مثْل إعلامِك له بعْدَ التنبيهِ عليه والتقدمة له، لأنَّ ذلك يَجْري مَجْرىٰ تكريرِ الإعلام في التأكيد والإحكام. ومن ههنا قالوا: إنَّ الشيءَ إذا أُضْمِر ثمَّ فُسِّر، كان ذلك أفخمَ له مِنْ أن يُذكَر من غير تقدمة إضمار "[1].

كما صاغ النبي (ﷺ) بيانه وكساه ثوب الاسمية مما أضفىٰ علىٰ مقصوده معنىٰ الثبوت والدوام؛ دلالة علىٰ أن هذه الخصوصية ثابتة ولازمة لا تنفك عن المدينة في كل زمان، يقول ابن حجر : " وَكُلُّ مُؤْمِنٍ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ سَائِقٌ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ لِمَحَبَّتِهِ فِي النَّبِيِّ (ﷺ) فَيَشْمَلُ ذَلِكَ جَمِيع الْأَزْمِنَةِ لِأَنَّهُ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ (ﷺ) لِلتَّعَلُّمِ مِنْهُ وَفِي زَمَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ لِلِاقْتِدَاءِ بِهَدْيِهِمْ وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لِزِيَارَةِ قَبْرِهِ (ﷺ) وَالصَّلَاةِ فِي مَسْجده وَالتَّبَرُّكُ بِمُشَاهَدَةِ آثَارِهِ وَآثَارِ أَصْحَابِهِ "[2].

ويلاحظ في هذا الهدي النبوي أنه (ﷺ) كان من الممكن أن يكتفي في بيانه بجملة (إن الإيمان ليأرز إلىٰ المدينة)، ولكنه (ﷺ) قصد إضفاء عناصر أخرىٰ من عناصر توكيد المعنىٰ وتقريره، فكانت الاستعارة في لفظ (الإيمان) ؛ حيث أثبت

---

(١) دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني : (١٣٢) تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة -دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني: (٤/ ٩٣ ، ٩٤) ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف علىٰ طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩ هـ

له الأروز ، والصورة التشبيهية في قوله (كما تأرز الحية إلىٰ جحرها) ، وقوله (يأرز) ، قال أبو عبيد: " أي ينضم ويجتمع بعضه إلىٰ بعض، كما تنضم الحية في جحرها ، وقال ابن دريد: أَرَزَ الشيء يأرِز، إذا ثبت في الأرض، وشجرة أرزَة، أي: ثابتة مجتمعة " [1].

وتتبدىٰ دقة بلاغته (ﷺ) في اختياره لتلك اللفظة اللافتة التي لم يكن غيرها من الألفاظ كـ (يرجع أو يعود أو يأوي) مثلا ، لينهض بدلالتها ومناسبتها للسياق؛ لأن النبي (ﷺ) لا يقصد مطلق عود أو رجوع، ولعل مقصده يتضح لي وللقارئ الكريم ببيان المعاني التي تدور حولها الدلالة اللغوية للكلمة، ففي اللسان: أَرَزَ يَأْرِزُ أُرُوزاً: تَقَبَّضَ وتَجَمَّعَ وثَبَتَ، فَهُوَ آرِزٌ وأَرُوزٌ، وَرَجُلٌ أَرُوزٌ: ثَابِتٌ مُجْتَمِعٌ. وأَرَزَ فُلَانٌ يَأْرِزُ أَرْزاً وأُرُوزاً إِذا تَضامَّ وتَقَبَّضَ مِنْ بخْلِه، وَرَجُلٌ أَرُوزُ الْبُخْلِ أَي شَدِيدُ الْبُخْلِ. وأَرَزَتِ الحيةُ تأْرِزُ: ثَبَتَتْ فِي مَكَانِهَا، وأَرَزَتْ أَيضًا: لَاذَتْ بِجُحْرِهَا وَرَجَعَتْ إِليه. والمَأْرِزُ: المَلْجَأُ. والآرِزُ مِنَ الإِبل: الْقَوِيُّ الشَّدِيدُ. والآرِزَةُ :الشَّدِيدَةُ المجتَمِعُ بَعْضَهَا إِلىٰ بَعْضٍ؛ وَيُقَالُ لِلْقَوْسِ: إِنها لَذَاتُ أَرْزٍ، وأَرْزُها صَلابَتُها، وَشَجَرَةٌ آرِزَةٌ أَي ثَابِتَةٌ فِي الأَرض [2].

فالكلمة تدور دلالتها اللغوية حول التَّضام، والتجمع، والشدة، والصلابة، والثبات، وقوة الالتصاق واللجوء، ومن هنا عدل النبي (ﷺ) عن قوله :" إن

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي(١/ ٣٦٣) ،حققه وعلق عليه وقدم له: محيي الدين ديب ميستو - أحمد محمد السيد - يوسف علي بديوي - محمود إبراهيم بزال، (دار ابن كثير، دمشق - بيروت)، (دار الكلم الطيب، دمشق - بيروت)، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

(٢) ينظر : لسان العرب، لابن منظور : (٥/ ٣٠٤، ٣٠٥)(أرز) ، دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة – ١٤١٤ هـ .

الإيمان ليأوي أو يرجع إلىٰ المدينة ليعطي لفظ (الإيمان) تلك الصفة من صفات الحية وهي " الأروز" ، وكأن الإيمان شخص عاقل يبحث عن شيء يحتمىٰ به، ويلجأ إليه، وينضم فيه في ثبات وشدة التصاق به، وذلك علىٰ سبيل الاستعارة المكنية التي شخصت الإيمان، ومجيء هذا الفعل (يأرز) علىٰ صيغة المضارع أضفىٰ طابع التجدد والاستمرارية لهذا الفعل من الإيمان، مما يجعلنا نتخيل انضمام الإيمان وتجمعه في المدينة علىٰ مدار الأزمنة، وتعاقب الأيام والسنين، وكأن المدينة ستكون مقصده وملاذه حتىٰ يتجمع فيها في آخر الزمان بالكلية ، وهذا المعنىٰ يظهر بصورة أوضح وأبين فيما أخرجه الحاكم من حديث جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) عن النبي (ﷺ) قال : ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيَعُودَنَّ الْأَمْرُ، كَمَا بَدَأَ لَيَعُودَنَّ كُلُّ إِيمَانٍ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ كَمَا بَدَأَ مِنْهَا حَتَّىٰ يَكُونَ كُلُّ إِيمَانٍ بِالْمَدِينَةِ)) [(١)].

وقد أشار الشريف الرضي إلىٰ تلك الاستعارة، فقال : " والمراد أنّ الإسلام ليأوي إلىٰ المدينة كما تأوي الحيّة إلىٰ جحرها، وأصل ذلك مأخوذ من التقبّض والاجتماع، يقال: «أرز أروزا» إذا كان منه ذلك، فجعل (‰) المدينة كالوجار[(٢)] للإسلام يتقلّص إليها، وينضمّ إلىٰ حماها لأنّها قطب مداره، ونقطة ارتكازه" [(٣)].

---

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين للحاكم (٤/ ٥٠١)، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله ابن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري، تحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١١ – ١٩٩٠م.

(٢) الوجار في الأصل : " جحر الضبع والأسد والذئب والثعلب ونحو ذلك " ، لسان العرب : وجر .

(٣) المجازات النبوية ، للشريف الرضي : (ص: ٨٥) ، شرح طه عبد الرءوف ، مطبعة الحلبي ، ١٣٩١ هـ – ١٩٧١ م .

ثم يختم (ﷺ) بيانه بتلك الصورة التشبيهية التي أضفت عنصرا آخر من عناصر توكيد المعنىٰ، فقال: (كما تأرز الحية إلىٰ جحرها) "أي كما تنتشر الحية من جحرها في طلب ما تعيش به، فإذا راعها شيء رجعت إلىٰ جحرها، وانكمشت فيه. وجحر الحية: هو مسكنها الذي تأمن فيه وتستقر كذلك الإيمان انتشر في المدينة " [1].

وفيها شبه النبي (ﷺ) أروز الإيمان إلىٰ المدينة بأروز الحية إلىٰ جحرها، ووجه الشبه: رجوع الشيء إلىٰ مأواه ومنبعه الذي خرج منه ليستقر فيه مرة ثانية.

وهي صورة تمثيلية بدا فيها عنصر الحركة جليًّا ألحق فيها النبي (ﷺ) هيئة مركبة عقلية بهيئة مركبة حسية، قصد بها تقريب المعنىٰ في النفس وتثبيته وتوكيده، وكان لها تأثيرها البالغ في النفس؛ حيث جمع النبي (ﷺ) بين أمرين متباعدين، فصورة أروز الحية ورجوعها إلىٰ جحرها صورة مألوفة وبخاصة في زمنه (ﷺ) حيث البادية والعيش في بيئة الصحراء، ولكن عند قرنها مع الهيئة المشبَّهة نجدها قلَّما تخطر علىٰ البال، فهي صورة نادرة في الجمع بين طرفيها في الذهن، وقد عدَّ العلماء من أسباب تأثير التمثيل في النفس جمعه بين المتباعدين، وكلما جمعت الصورة بين متباعدين كانت أفخم وأعظم، وأشد روعة، وأكثر تأثيرا، يقول الإمام عبد القاهر: " وهل تشكُّ في أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتىٰ يختصر لك بُعْدَ ما بين المشرق والمغرب، ويجمع ما بين المُشئِمِ والمُعْرِق، وهو يُرِيكَ للمعاني الممثَّلة بالأوهام شَبَهًا في الأشخاص الماثلة، والأشباح القائمة، ويُنطق لك الأخرس، ويُعطيك البيان من الأعجم، ويُريك

(١) فتح المنعم شرح صحيح مسلم، أ.د/ موسىٰ شاهين لاشين (١/ ٤٦٧) ، دار الشروق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

الحياةَ في الجماد، ويريك التئامَ عين الأضداد، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين، والماءِ والنارِ مجتمعين، " [1].

فهذه الصورة التشبيهية فيها جدة وطرافة لا نجدها في غير لسان النبوة قصد النبي (ﷺ) من خلالها التأكيد علىٰ أن المدينة هي ملجأ الإيمان ، وملاذ المؤمنين، تفزع إليها قلوبهم، وتظل متعلقة بها علىٰ مدار الأزمان ، ولا تقتصر بلاغة تلك الصورة في جمعه (ﷺ) بين المتباعدين أو نقلها للنفوس من خفي إلىٰ جلي، وإنّما تبدو دقتها في اختيار عناصرها المكونة لها، وأول هذه العناصر التعبير بالفعل (يأرز) ومناسبته الدقيقة للفظ (الحية) ، وأروز الحية إلىٰ جحرها لا يكون إلا علىٰ هيئة خاصة، وسبب معين يدفعها إلىٰ ذلك، ولذلك يقول ابن منظور:" وقَالَ الضَّرِيرُ : الأَرْزُ أَيضاً أَن تَدْخُلَ الْحَيَّة جُحْرَهَا عَلَىٰ ذَنَبِهَا فَآخِرُ مَا يَبْقَىٰ مِنْهَا رأْسها فَيَدْخُلُ بَعْدُ، قَالَ : وكَذَلِكَ الإِسلام خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَة فَهُوَ يَنْكُصُ إِليها حَتَّىٰ يَكُونَ آخِرَهُ نُكُوصًاكَمَا كَانَ أَوّله خُرُوجًا، وإِنما تأْرِزُ الْحَيَّة عَلَىٰ هَذِهِ الصِّفَة إِذا كَانَتْ خَائِفَة، وإِذا كَانَتْ آمِنَة فَهِيَ تبدأُ برأْسها فَتَدْخُلُهُ وهَذَا هُوَ الإِنْجِحَارُ"[2].

وهذه تفرقة دقيقة بين أروز الحية وانجحارها ، فأروز الحية لا يكون إلا عند تحقق خوفها، وحينئذ يكون جحرها هو الملاذ الآمن لها ، ولعل النبي (ﷺ) قصد من قرن تلك الصورة بصورة أروز الإيمان إلىٰ المدينة، أن الإيمان كلما

---

(١) أسرار البلاغة (ص: ١٠٠) تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢ هـ -٢٠٠١ م.

(٢) لسان العرب، ابن منظور(٥/ ٣٠٦)(أرز).

ضُيِّق علىٰ أهله، وتوجهت إليه سهام الكراهية والبغض، كانت المدينة ملاذه الآمن، وملجأه الحصين .

وفيها إشارة أيضا: أن الإيمان سيكون يوما بغيضا كبغض الحية لدىٰ النفوس، وتضيق به البلاد ويحارب من كل اتجاه، وحينئذ يغلب علىٰ أهل الإيمان الشعور بالغربة ، ويكون الواحد منهم في تمسكه بدينه كالقابض علىٰ الجمر، ويفر بدينه هربا إلىٰ المدينة كما تفر الحية إلىٰ حجرها.

ولعل هذه الإشارة يكشف عنها ما جاء في رواية لمسلم عن ابن عمر (ƒ) عن النبي (ﷺ) قال: ((إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ، كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا)) [1] .

ومن لطائف تلك الصورة ما فيها من إيحاء أن المدينة كلما آوي إليها أهل الإيمان وجدوا في رحابها الأمن والسكينة والطمأنينة، وتكون حينئذ كحجر الحية عندما تلوذ إليه هربا، فتجد فيه الأمن ويغمرها الشعور بالطمأنينة، وكأن هناك علاقة وطيدة بين الإيمان والمدينة ، يقول ابن بطال:" فكأن الإيمان يرجع إليها كما خرج منها أولا، ومنها ينتشر كانتشار الحية من جحرها، ثم إذا راعها شيء رجعت إلىٰ جحرها، فكذلك الإيمان لما دخلته الدَّواخلُ لم يقصد المدينة إلا مؤمن صحيح الإيمان"[2] .

ولعل من لطائفها أيضا: أن الحية عندما تأزر إلىٰ جحرها تكون علىٰ هيئة مخصوصة حيث تبدأ بذنبها، وآخرُ جزء تدخلُه في جحرها يكون رأسها، والذي

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا وإنه يأرز بين المسجدين، رقم(١٤٦) .

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤/ ٥٤٨) تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد –السعودية، الرياض الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ –٢٠٠٣م.

يدفعها إلىٰ ذلك هو الترقب وشدة الحيطة والحذر القوىٰ، وهكذا كان حال أهل الإيمان الأوائل في هجرتهم إليها ؛ حيث غلب عليهم الترقب والتوجس وشدة الحيطة والحذر من المشركين، وربما سيكون حال من يرحل إلىٰ المدينة هكذا في آخر الزمان.

ولعل من لطائفها أيضا: أن المدينة حرم آمن كما أخبر النبي (ﷺ)، فلا يجرؤ أحد علىٰ اقتحام حرمتها وكذلك الحية إذا أرزت إلىٰ جحرها لا يستطيع أحد أن يقتحمه عليها، أو يحاول إخراجها منه، فهذا أمر ترهبه النفوس، ومن ذا الذي يجرؤ علىٰ ذلك؟!! بل علىٰ العكس إذا رآها الواحد منا استولىٰ علىٰ نفسه الخوف والفزع من الوهلة الأولىٰ، وربما لم تره ، فكيف لعاقل أن يقتحم عليها جحرها، ولذلك قيل:" ولعل تخصيص هذه الدابة بالتشبيه بها؛ لأنها أشد أرزا؛ أي : انضماما وانقباضا وإسراعا، ولأنها لا يمكن إخراجها من جحرها بعد دخولها" (١).

ويراود نفسي إضافة سرٍ آخر لا يبعد عن السياق، فإن أصبت فلي أجران، وإن أخطأت فلي أجر المجتهد، وهو أن الحية من أظهر صفاتها زرع المهابة في نفس من يراها ، فبمجرد ما يقع عليها نظر الرائي تورث في نفسه روعا وخوفا، وكذلك سيظل للإيمان وأهله مهابتهم التي تحفظ عليهم حرمتهم، حتىٰ وإن بدوا في موقف الضعف والخوف، كما يظل للحية هيبتها، حتىٰ وهي تلوذ إلىٰ جحرها بالفرار.

---

(١) لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح، لعبد الحق بن سيف الدين بن سعد الله البخاري الدِّهلوي الحنفي : (١/ ٤٧٧) ، تحقيق وتعليق: الأستاذ الدكتور تقي الدين الندوي، دار النوادر، دمشق – سوريا، الطبعة: الأولىٰ،١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م.

وتتبدىٰ دقة بيانه (ﷺ) في اختيار لفظ (الحيَّة) دون نظائرها اللغوية مثل (الثعبان) مثلا، ولعل ذلك يرجع إلىٰ أن الحية في أصل مدلولها اللغوي: هي فراخ الثعابين، فالثعبان ما دام صغيرا أطلق عليه حية [(١)]، ونظم بيانه (ﷺ) لا يقصد معنىٰ الوحشية البادية في لفظ الثعبان، وإنما كان القصد إلىٰ اللفظة المعبرة عن شدة التضام، والالتواء، والتجمع، والقبض مع خفة الحركة ،وهذه المعاني يؤديها لفظ (الحيَّة)، وهي بها آنس وأقرب إلىٰ مقصوده (ﷺ) دون لفظة الثعبان، ومن هنا نجد دقة البيان القرآني باستخدام اللفظين في سياق قصة موسىٰ (عليه السلام) في مشهد واحد، وهو إلقاء موسىٰ لعصاه ، ففي (سورة طه) يقول –سبحانه–: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [(٢)] ؛ لأن المقام في خطابٍ مع الله –سبحانه– فكان إلقاءُ العصا تجربةً لموسىٰ (عليه السلام) حتىٰ لا يخاف بعد ذلك، وتطمنةً لقلبه عندما يواجه بها سحرة فرعون، ولذلك عقَّب الله (ﷻ) علىٰ هذه الآية بقوله ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ [(٣)] وفي (سورة الأعراف) جاء قوله : ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [(٤)] ؛ لأن المقام في مواجهة فرعون﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [(٥)]، فكان التعبير بـ (ثعبان) هو

---

(١) ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس ، للزَّبيدي:(٢/ ٨٨) (ثعب)، تحقيق :مجموعة من المحققين، دار الهداية.

(٢) سورة طه، الآية:٢٠.

(٣) سورة طه،جزء من الآية:٢١.

(٤) سورة الأعراف،جزء من الآية:١٠٧.

(٥) سورة الأعراف،جزء من الآية:١٠٦.

الأنسب؛ لبث الخوف والرعب في قلبه، بضخامة تلك الحية، واكتمال نموها، وما يتبع ذلك من وحشية وشراسة.

هذا وقد استنبط العلماء مما أخبر به النبي (ﷺ) من أروز الإيمان إلى المدينة عدة إشارات منها :

١-أنه "من باب اللزوم، وأن مِن لازم إرز الإيمان إلىٰ المدينة أن يسبقه العلم ويلتقيان بها ، فتظل المدينة بحمد الله دار العلم وعاصمته ومقره، وإن كان قد جاء عليها زمن تعطل فيها بعض الشيء ولكن لم ينقطع.... وما خلت المدينة في عصر من عصورها من العلماء لكن يقلون أو يكثرون" [١].

٢-" أنه تنبيه علىٰ صحة مذهبهم وسلامتهم من البدع والمحدثات واقتدائهم بالسنن وأن الإيمان مجتمع عندهم وعند من سلك سبيلهم"[٢].

٣-"أنه يترتب علىٰ ذلك أن هذا الحديث "حجة علىٰ صحة مذهب مالك في تمسكه بعمل أهل المدينة، وكونه حجة شرعية"[٣].

وكفىٰ بتلك من مناقب للمدينة وأهلها.

---

(١)شرح الأربعين النووية عطية بن محمد سالم (المتوفىٰ : ١٤٢٠هـ) (٧٨/ ٥، الكتاب مرقم آليا، المكتبة الشاملة)، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية
http://www.islamweb.net

(٢) الكوكب الوهَّاج والرَّوض البَهَّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، جمع وتأليف: محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمي العَلَوي الهَرَري الشافعي(٤/ ٥٧)، مراجعة: لجنة من العلماء برئاسة البرفسور هاشم محمد علي مهدي ، المستشار برابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة، دار المنهاج - دار طوق النجاة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم : ٢/ ١٢٨ .

المقام الثالث : دعاؤه (ﷺ) للمدينة بالبركة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ(رضي الله عنه) ، أَنَّهُ قَالَ: كَانَ النَّاسُ إِذَا رَأَوْا أَوَّلَ الثَّمَرِ جَاءُوا بِهِ إِلَى النَّبِيِّ (ﷺ) ، فَإِذَا أَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ (ﷺ)، قَالَ:« اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا، اللهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَمِثْلِهِ مَعَهُ ، قَالَ: ثُمَّ يَدْعُو أَصْغَرَ وَلِيدٍ لَهُ فَيُعْطِيهِ ذَلِكَ الثَّمَرَ»[1].

كثر في البيان النبوي دعاؤه (ﷺ) للمدينة بالبركة، وهذا يدل علىٰ شدة حبه (ﷺ) لها ولأهلها؛ إكراما لهم، ومجازاة علىٰ حبهم له، ونصرتهم لدعوته.

ودعاؤه (ﷺ) للمدينة بالبركة في هذا الهدي النبوي –محل الدراسة– له سياقه، وهو ما حكاه راوي الحديث سيدنا أبو هريرة بقوله: (كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلىٰ النبي(ﷺ)، فإذا أخذه رسول الله (ﷺ) قال: ...)، وهذه الجملة من بيان هذا الصحابي الجليل يظهر فيها مدىٰ حفاوته بما فيها من معنىٰ، ولذا جاءت ألفاظها مع سهولتها ووضوحها متناغمة مع ذلك ، فتعبيره بفعل الكون ماضيا في أولها يوحي بأن ذلك الصنيع من الناس كان عادة ودأبا لهم ، ثم هو يعبر بلفظ العموم (الناس) مع أن المراد به الصحابة (رضوان الله عليهم)، وذلك علىٰ سبيل المجاز المرسل لعلاقة العموم ، وقوله: (أول الثمر) كناية عن باكورة الثمار، وفيها إلماح بمدىٰ حفاوة الناس برؤياها، وما يغمرهم من بشر، ثم هو يختصر الكلام فيحذف منه ما هو معلوم؛ تركيزا علىٰ الأهم، وتوفيرا له علىٰ الغرض المقصود، وتصفية للعبارة، وتقدير المحذوف: إذا رأوا أول الثمر قطفوه فجاءوا به ، وتعبيره بلفظ المجيء في قوله: (جاءوا) بما يشعر به من ثقل

---

(١)صحيح مسلم كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي (ﷺ) فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمها، رقم(١٣٧٣).

المجيء، مع أن مقتضىٰ الظاهر أن يعبر في هذا السياق بالإتيان؛ لأنه إتيان إلىٰ الرسول الحبيب ، وفيه الأنس بلقائه ، والبشر برؤياه، وذلك يقتضي التعبير بـ(الإتيان) بما فيه من الدلالة علي خفة الحركة، وسهولة المأتىٰ علىٰ النفوس، ولعله عبر بلفظ (المجئ) للإشعار ببعدهم المكاني عن النبي(ﷺ)، ومع ذلك يقطعون المسافات الشاسعة بهذه البواكير من الثمار؛ حرصًا علىٰ التبرك بدعاء النبي (ﷺ) ،قال العلماء: " كانوا يفعلون ذلك رغبة في دعائه (ﷺ) في الثمر وللمدينة وللصاع والمد، وإعلاما له (ﷺ) بابتداء صلاحها لما يتعلق به من الزكاة وغيرها وتوجيه الخارصين، وقال الأُبي: قيل إنَّما كانوا يؤثرونه به علىٰ أنفسهم حبًّا له، ويرونه أولىٰ الناس بما يسبق إليهم من خير من ربهم. وقال الزرقاني: إما هدية وجلالة ومحبة وتعظيما، وإما تبركا بدعائه لهم بالبركة " [1].

ثم هو لا يغفل –أيضا– عن مشهد حفاوته (ﷺ) أيضا بهذه الثمار، فيقول: (فإذا أخذه) ولولا قصده بيان هذا المعنىٰ لأسقطه في اللفظ، وأخبر بدعائه (ﷺ) مباشرة بمجرد رؤياه لتلك الثمار معهم، والتعبير بلفظ (الأخذ) يوحي بمزيد عناية منه (ﷺ) بها؛ استبشارا بنعمة الله (ﷻ) بهذا الخير الجديد.

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض :٤/ ٢٥٢ . وينظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للمباركفوري (٩/ ٥١٦) ، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء – الجامعة السلفية – بنارس الهند ، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤ م.

وينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي :٥/ ٣٧ .

وهذا الصنيع من الصحابة (رضوان الله عليهم)، قال العلماء: " فيه دليل علىٰ جواز الطواف بالباكورة علىٰ الناس، ويستحب لمن يراها أن يدعو لصاحبها ولثمر مدينته وصاعها ومدها "[1].

وإذا كان الطابع الذي غلب علىٰ بيانه (ﷺ) في الحديثين السابقين من هذه الدراسة هو الأسلوب الخبري تلاؤما مع ما يخبر به الصحابة من حرمة المدينة، فإن السمة الأساسية التي غلبت علىٰ بناء هذا الحديث هو الأسلوب الإنشائي الذي جاء مرتديا ثوب الدعاء؛ تلاؤمًا مع مقام الدعاء بالبركة.

واللافت للنظر في بناء هذا الهدي النبوي أنه يتكون من جملتين أساسيتين، أو من شقين:

الشق الأول: دعاء صريح بدأ بجملة:(اللهم بارك لنا في ثمرنا) .

والشق الثاني: يكشف عن قياس دعائه (ﷺ) للمدينة بحال سيدنا إبراهيم (عليه السلام) لمكة، والمهم أن روح الدعاء هي المهيمنة والغالبة علىٰ نظم الحديث سواء صراحة، أو ضمنا.

وأول ما يتبدَّىٰ من السمات البلاغية بين هاتين الجملتين اللتين شكلتا بناء الحديث هو الإطناب بذكر العام بعد الخاص، فما ذكره النبي(ﷺ) من الدعاء بالبركة لثمار المدينة، وللمدينة ذاتها، وصاعها ومدها داخل لاشك في قوله (ﷺ) في الجملة الثانية: (وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه)، ولكن هذا دعاء في صورة الخبر، والأول دعاء في صورته الإنشائية ، وفي بدئه (ﷺ) بهذا الخاص مناسبة لمقام الحديث؛ حيث مجيء الناس بما رأوه من باكورة الثمار، وفيه نوعٌ من الاهتمام بالخاص ؛ لأنه المقصود من الدعاء ، وتأكيدٌ علىٰ الدعاء له؛ حيث جاء مرة في لفظ الخاص، ومرة بلفظ العام.

---

(١) شرح حصن المسلم من أذكار الكتاب والسنة للقحطاني : ١/ ٢٢٣ ، شرحه : مجدي بن عبد الوهاب الأحمد .

وفي بدئه (ﷺ) بالخاص أيضا : نوع عن الحفاوة والإرضاء والاهتمام بمقصود الصحابة الذين جاءوا إليه بتلبية الغرض الأساس من وراء مجيئهم إليه.

كما أن السمة البارزة بين هاتين الجملتين هي أن النبي (ﷺ) استفتحها بتلك الصيغة المفعمة بالثناء والإحساس الغامر بقربه من ربه –سبحانه– (اللهم)التي تفيض بإظهار الخشوع والضراعة إلىٰ الله (ﷻ)، وهذا ادعي إلىٰ استجابة دعائه، وتلبية مرغوبة، وهذه الصيغة اتفق العلماء علىٰ أن أصلها: (يا الله)، وأن الميم زائدة فيها، وليست من أصل الكلمة[1]، " وهذا خاص بلفظ الجلالة، وذلك لكثرة جريانه علىٰ الألسنة، فلم ينادَ في الوجود شيء كما ينادىٰ لفظ الجلالة، ووراء هذا التصرف اللغوي معنىٰ، هو أن أول حركة اللسان تكون ملتبسة بلفظ الجلالة بدل حرف النداء، ولهذا معنىٰ في قلوب أهل الذكر، ومعنىٰ آخر هو إحساس القائل (اللهم) أن الله –سبحانه– يقبل عليه ، ويقترب منه، ويسمع دعاءه قبل أن يناديه، وهذه هي الخصوصية الخاصة بلفظ الجلالة، فليس هناك منادي يقبل علىٰ من يناديه قبل أن يناديه إلا الله –سبحانه– لأنه يعلم توجه عبده إليه قبل أن ينطق بالنداء "[2].

---

(١) ينظر : شرح التصريح علىٰ التوضيح للشيخ / خالد الأزهري: ١/ ١٧٢ ، وبهامشه حاشية العلامة يس ، طبعة عيسىٰ الباب الحلبي ، وينظر : أوضح المسالك إلىٰ ألفية ابن مالك لابن هشام الأنصاري : ٤/ ٣١ ، دار الجيل – بيروت – لبنان – ط ٥ ، ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م .

(٢) شرح أحاديث من صحيح مسلم ، دراسة في سمت الكلام الأول ، د/ محمد أبو موسىٰ : (١/ ٤٢٢) ، مكتبة وهبة، ط أولىٰ ، ١٤٣٦ هـ – ٢٠١٥ م.

أما عن بلاغة الشق الأول في الحديث : (اللهم بارك لنا في ثمارنا، وبارك لنا في مدينتنا ، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا) ، فأول ما يظهر من فنون البلاغة فيها هو الإطناب، وقد بدا ذلك في عدة مواطن :

الأول: ذكر العام بعد الخاص؛ حيث دعا النبي (ﷺ) لثمار المدينة بالبركة في جملة مستقلة، ثم دعا للمدينة ذاتها، ولا شك أن الدعاء بالبركة في الثمار داخل في الدعاء إلىٰ المدينة بعمومها، وكان بدؤه (ﷺ) بالدعاء للثمار مناسبا لمجيء الصحابة بها وحفاوة منه (ﷺ) بها؛ ولذلك نجده يعبر بها صراحة (ثمارنا) مع أن السياق يقتضي التعبير بها مضمرة؛ لذكرها في السياق السابق علىٰ الدعاء، ولكنه (ﷺ) يذكرها مرة ثانية بلفظ المظهر ، حفاوة بها، وتسليطا للضوء علىٰ مرغوبه، وهو تحقيق البركة فيها، كما أن اللفظة ذاتها فيها عموم، وتحمل فيضا من الخير لا يقتصر علىٰ الثمار المعروفة، بل يشمل ما تنتجه الأشجار والزروع والولد والمال، ففي اللسان: الثمر حمل الشجر، وأنواع المال، والولد: ثمرة القلب ، وقيل له ذلك لأن الثمرة ما تنتجه الشجر ، والولد ينتجه الأب[1] ، فالكلمة مفعمة بالخير، ومعاني الأمل، و وفرة العطاء ، ورغد العيش .

الثاني: ذكر الخاص بعد العام، فدعاء النبي (ﷺ) بالبركة في الصاع والمد داخل –أيضا –في الدعاء بالبركة إلىٰ المدينة وهو أعم وأشمل " أي في ذاتها من جهة سعتها وسعة أهلها " [2].

وقال الباجي: " يريد والله أعلم – في غير ذلك –أي الثمار – من مرافقها ومنافعها " [3]. وتعميم الدعاء بالبركة للمدينة كلها فيه رغبة من النبي (ﷺ) في

---

(١) ينظر : لسان العرب : ثمر .

(٢) مشكاة المصابيح، للتبريزي (٩/ ١٠٧٠) ، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥م.

(٣) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، بَابُ الْعُشْرِ، ذِكْرُ الْخَبَرِ الدَّالِّ عَلَىٰ أَنَّ الصَّاعَ خَمْسَةُ

تحصيل وافر الخير لها ، واستظهار أوجه البركة في كل شيء يتعلق بها ، من البركة في الناس أنفسهم، ورغد عيشهم، وسعة أرضهم، وكثرة البركة في ثمارهم وزرعهم ودوابهم وعيون مائهم وآبارهم ويمتد لكل ما تشتمل عليه من خيرات.

ثم يعود النبي (ﷺ) مرة ثانية لأسلوب التخصيص بعد هذا العموم، فيدعو بالبركة في صاع المدينة ومدها، وهو داخل لاشك في العموم السابق، وهو مرتبط أيضا بالثمار، وبما يتعلق بها من عمليتي البيع والشراء عن طريق المعاملات التجارية، وفي هذا توسعة لأرزاقهم ورغد عيشهم، ومن هنا خص النبي (ﷺ) الصاع والمد بالدعاء بالبركة بعد عموم دعائه للمدينة.

ولعل تخصيص الصاع والمد بالدعاء بالبركة بجملة مستقلة لما سبق من علمه بشكوىٰ أهل المدينة من صغرهما، فعند ابن حبَّان عن طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ (ﷺ) قِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، صَاعُنَا أَصْغَرُ الصِّيعَانِ، وَمُدُّنَا أَصْغَرُ الْأَمْدَادِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ):((اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي قَلِيلِنَا وَكَثِيرِنَا، وَاجْعَلْ لَنَا مَعَ الْبَرَكَةِ بَرَكَتَيْنِ))[1] ، وبالفعل استجاب الله دعاء نبيه فزاد مد أهل المدينة، وبارك فيه ، وصار هاشميا ، مثل مد النبي (ﷺ) مرتين أو مرة ونصف [2].

أَرْطَالٍ وَثُلُثٌ عَلَىٰ مَا قَالَ أَئِمَّتُنَا مِنَ الْحِجَازِيِّينَ وَالْمِصْرِيِّينَ، رقم: [٣٢٨٤]، (٨/ ٧٩)، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي ، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

(١) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان : ذِكْرُ الْخَبَرِ الدَّالِّ عَلَىٰ أَنَّ الصَّاعَ خَمْسَةُ أَرْطَالٍ وَثُلُثٌ عَلَىٰ مَا قَالَ أَئِمَّتُنَا مِنَ الْحِجَازِيِّينَ وَالْمِصْرِيِّينَ ، رقم : ٣٢٨٤ ،(٨/ ٧٩)

(٢) ينظر : شرح النووي علي صحيح مسلم : ٩/ ١٤٢ ، ط دار إحياء التراث العربي ، بيروت، ط: الثانية ، ١٣٩٢ هـ .

والثالث: بلاغة تكرار ذكر المسند وما يتعلق به، وذلك في قوله (ﷺ): (وبارك لنا) إذ كان من الممكن أن يعبر (ﷺ) بلفظي (بارك لنا) مرة واحدة ويدخل معها كل ما يدعو له، ولكن بيان النبوة آثر هذا التكرار ليجعل لكل شيء يدعو له نوعا مستقلا من الدعاء بالبركة، ودعوة مخصوصة إشاعة للبركة في كل شيء لفظا ومعنىٰ، وفي هذا التكرار زيادة إلحاح في الدعاء ،ومبالغة في الضراعة إلىٰ الله (ﷻ) بما يتبدىٰ من عمق العاطفة بالإقبال علىٰ الله ، ومقام الدعاء أحق بإظهار ذلك ، والإلحاح في الدعاء من أهم مسوغات الإجابة، و((كَانَ النَّبِيُّ (ﷺ) إِذَا دَعَا دَعَا ثَلاثًا، وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلاثًا)) [(١)].

وهذا التكرار مما يبرز مشاعر حبه(ﷺ) الفياض للمدينة وأهلها، ورغبته العميقة في تحصيل البركة في كل ما يتعلق بها، ولذا أدخل نفسه في زمرتهم، لا يتميز عن أحدهم؛ إحساسًا منه (ﷺ) بانصهار ذاته فيهم لقربه منهم ، وقربهم منه، وتواضعا جما منه (ﷺ) لهم ، وذلك بما أشاعه في نظم الحديث من تكرار الضمير (نا) سواء في (لنا) أو (ثمارنا – مدينتنا – صاعنا – مدنا).

ومن الألوان البلاغية الأخرىٰ التي اشتمل عليها دعاؤه(ﷺ) لصاع المدينة ومُدِّها، ما بدا من المجاز المرسل في قوله : (وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا)؛ حيث دعا (ﷺ) أن تتحقق البركة في الصاع والمد ، والمراد أن تتحصل البركة فيما فيهما من الثمار والحبوب وغير ذلك، وذلك لعلاقة المحلية ، قال

---

(١) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي (ﷺ) من أذىٰ المشركين والمنافقين، رقم(١٧٩٤)

الزرقاني : " أي بارك لنا فيما يكال في صاعنا، وبارك لنا فيما يكال في مدنا ، فحذف المقدر لفهم السامع ، وهو من ذكر المحل وإرادة الحال " [1] .

ووجه ابن عبد البر الكلام علىٰ الاستعارة، فقال: " وهذا من فصيح كلامه وبلاغته (ﷺ)؛ وفيه استعارة؛ لأن الدعاء إنما هو للبركة في الطعام المكيل بالصاع والمد، لا في الظروف، ويحتمل علىٰ ظاهر العموم أن تكون فيهما "[2].

ولا يخفىٰ ما في حمل الكلام علىٰ الاستعارة من بُعد، والظاهر أنه يقصد الاستعارة التبعية في الحرف، وإنما تكون الاستعارة في الحروف إذا كان مظروفها معنىٰ ، وليس محلا ذاتا وحسا ، كما نقول: محمد في عافية، وفي نعمة ، والصاع والمد ليسا كذلك، ولذا فالأدق حمل الكلام علىٰ المجاز المرسل.

يقول العيني (رحمه الله):" المراد بالبركة في المد والصاع ما يكال بهما ، وأضمر ذلك لفهم السامع، وهذا من باب تسمية الشيء باسم ما قرب منه، كذا قيل ، قلتُ: هذا من باب ذكر المحل وإرادة الحال " [3] ، وواضح من قوله أنه يستبعد أن تكون علاقة هذا المجاز المجاورة، ويرىٰ أنها المحلية، وأرىٰ أن هذا أدق وأنسب للمعنىٰ.

كما أرىٰ أنه لا مانع من حمل الكلام علىٰ حقيقته –أيضا– بدعائه (ﷺ) بالبركة في الصاع والمد ذاتهما ، وهذا ما استظهره الشيخ النووي (¬) بقوله: "

---

(١) شرح الزرقاني علىٰ الموطأ ، لـ محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري: (٤/ ٣٤٣) ، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة ، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

(٢) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، المباركفوري: (٩/ ٥١٧) .

(٣)عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني : (١١/ ٢٤٨).

الظاهر من هذا كله أن المراد البركة في نفس الكيل في المدينة ، بحيث يكفي المد في المدينة لمن لا يكفيه في غيرها، وهو أمر محسوس عند مَنْ سكنها " [1] .

ويؤيده أيضا أن مدَّهم صار هاشميا، مثل مد النبي (ﷺ)، وهذه بركة في المد ذاته ، فلا مانع من حمل الكلام علىٰ الدعاء لما في المد والصاع ذاتهما ، وبركةُ دعاءِ رسول الله (ﷺ) تفيض بالخير علىٰ كل شيء، حتىٰ هناك من العلماء من جعل دعاءه (ﷺ) بالبركة في الحديث يحتمل البركة الأخروية والدنيوية ، وهذا ما حكاه الشيخ النووي نقلا عن القاضي عياض فقال : قَالَ الْقَاضِي الْبَرَكَة هُنَا بِمَعْنَىٰ النَّمَاءِ والزِّيَادَة وتَكُونُ بِمَعْنَىٰ الثَّبَاتِ واللُّزُومِ، قَالَ: فَقِيلَ: يُحْتَمَلُ أَنْ تكون هَذِهِ الْبَرَكَة دِينِيَّة، وهِيَ مَا تَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْمَقَادِيرِ مِنْ حُقُوقِ اللهِ تَعَالَىٰ في الزَّكَاة، والْكَفَّارَة فَتَكُونُ بِمَعْنَىٰ الثَّبَاتِ والْبَقَاءِ لَهَا كَبَقَاءِ الْحُكْمِ بِهَا بِبَقَاءِ الشَّرِيعَة وثَبَاتِهَا، ويُحْتَمَلُ أن تكون دنيوية من تكثير الكيل والقدرة بِهَذِهِ الْأَكْيَالِ، حَتَّىٰ يَكْفِيَ مِنْهُ مَا لَا يَكْفِي مِنْ غَيْرِهِ في غَيْرِ الْمَدِينَة، أَوْ تَرْجِعُ الْبَرَكَة إِلَىٰ التَّصَرُّفِ بِهَا في التِّجَارَة وأَرْبَاحِهَا ، وإِلَىٰ كَثْرَة مَا يُكَالُ بِهَا مِنْ غَلَّاتِهَا وثِمَارِهَا، أَوْ تَكُونُ الزِّيَادَة فِيمَا يُكَالُ بِهَا لِاتِّسَاعِ عَيْشِهِمْ وكَثْرَتِهِ بَعْدَ ضِيقِهِ لَمَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ، ووَسَّعَ مِنْ فَضْلِهِ لَهُمْ، ومَلَّكَهُمْ مِنْ بِلَادِ الْخِصْبِ، والرِّيفِ، بِالشَّامِ، والْعِرَاقِ، ومِصْرَ، وغَيْرِهَا " [2].

ولا يخفىٰ هذا التناسب بين تلك المفردات (ثمارنا –صاعنا –مدنا)وكلها مفردات خير، وأسباب رخاء ونماء، وقد جاءت متناغمة مع مقام دعائه (ﷺ) لهم بالبركة، ومبالغته في تحصيلها.

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٤/ ٩٨).

(٢) شرح النووي علىٰ مسلم (٩/ ١٤٢)

كما يبدو من الأسرار البلاغية : الوصل بين تلك الجمل التي اشتمل عليها الشق الأول من الحديث: (وبارك لنا في ثمارنا ،وبارك لنا في مدينتنا، و... ، و...) وذلك لاتفاقها جميعا في الإنشائية لفظا ومعنىٰ ، فكلها أوامر منه (ﷺ) جاءت علىٰ سبيل التضرع والدعاء ، والابتهال إلىٰ الله (ﷻ) ، ومما حسن الوصل بينها اتفاقها في المسند والمسند إليه ، وما بينهما من تناسب في متعلقاتها، وقد حقق هذا الوصل رغبته(ﷺ) الأكيدة في وفرة أسباب الخير، وفيوضات البركة، وتعددها لأهل المدينة.

موازنـــــــة :

وإذا كانت لغة بيانه (ﷺ) سلكت مسلك الوصل في هذا الحديث بين تلك الأدعية، فقد جاءت بلغة الفصل بينها في روايةٍ لمسلم أيضا- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ بكر بن عمرو ، مَوْلَىٰ الْمَهْرِيِّ، أَنَّهُ أَصَابَهُمْ بِالْمَدِينَة جَهْدٌ وشِدَّة، وأَنَّهُ أَتَىٰ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ، فَقَالَ لَهُ: إِنِّي كَثِيرُ الْعِيَالِ، وقَدْ أَصَابَتْنَا شِدَّة، فَأَرَدْتُ أَنْ أَنْقُلَ عِيَالِي إِلَىٰ بَعْضِ الرِّيفِ، فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: لَا تَفْعَلْ، الْزَم الْمَدِينَة، فَإِنَّا خَرَجْنَا مَعَ نَبِيِّ اللهِ (ﷺ) - أَظُنُّ أَنَّهُ قَالَ - حَتَّىٰ قَدِمْنَا عُسْفَانَ، فَأَقَامَ بِهَا لَيَالِيَ، فَقَالَ النَّاسُ: واللهِ مَا نَحْنُ هَا هُنَا فِي شَيْءٍ، وإِنَّ عِيَالَنَا لَخُلُوفٌ، مَا نَأْمَنُ عَلَيْهِمْ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ (ﷺ)، فَقَالَ: «مَا هَذَا الَّذِي بَلَغَنِي مِنْ حَدِيثِكُمْ؟» - مَا أَدْرِي كَيْفَ قَالَ - «وَالَّذِي أَحْلِفُ بِهِ - أَوْ والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ - لَقَدْ هَمَمْتُ - أَوْ إِنْ شِئْتُمْ لَا أَدْرِي أَيَّتَهُمَا قَالَ - لَآمُرَنَّ بِنَاقَتِي تُرْحَلُ، ثُمَّ لَا أَحُلُّ لَهَا عُقْدَة حَتَّىٰ أَقْدَمَ الْمَدِينَة »، وقَالَ: «اللهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّة فَجَعَلَهَا حَرَمًا، وإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَة حَرَامًا مَا بَيْنَ مَأْزِمَيْهَا، أَنْ لَا يُهْرَاقَ فِيهَا دَمٌ، ولَا يُحْمَلَ فِيهَا سِلَاحٌ لِقِتَالٍ، ولَا تُخْبَطَ فِيهَا شَجَرَة إِلّا لِعَلْفٍ، اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، اللهُمَّ

بَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا، اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا، اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا، اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، اللهُمَّ اجْعَلْ مَعَ الْبَرَكَة بَرَكَتَيْنِ" (١).

وفي هذا الحديث تتضاعف لغة الإلحاح في الدعاء ، وتظهر بصورة أوضح كاشفة عن شدة حفاوته (ﷺ) بالمعنىٰ، باستقلال كل جملة بدعاء خاص ،ودعوة مستقلة، تبدأ بصيغة (اللهم) التي تكررت بصورة لافتة ومكثفة، زيادة في الضراعة والخشوع، وشدة الإقبال علىٰ الله (ﷻ)، ومزيد من الإلحاح في استجابة دعائه.

ولعل السر في ذلك : هو اختلاف مقام هذا الحديث عن الحديث محل الدراسة، فالمقام فيه شكوىٰ أحد الصحابة من جهد المدينة ومشقة العيش فيها، وبخاصة مع كثرة الأولاد، وهم فلذات الأكباد، وتغلب علىٰ عاطفة الأبوة تجاههم الحرص الشديد علىٰ توفير متطلباتهم، وتحقيق حياة كريمة لهم، ومن هنا كان هذا الدعاء المفعم بالإقبال علىٰ الله، مع تكرار صيغة (اللهم) هكذا سبع مرات متتاليات؛ رجاءً صادقا من أعماق قلبه (ﷺ) في تلبية ما يدعو له، ووفرة البركة ، وتضاعفها في المدينة ، بخلاف الحديث محل الدراسة فلم تظهر فيه تلك الصورة اللافتة من تكرار الدعاء بصيغة (اللهم) ، واستقلال كل دعاء بجملة خاصة؛ لأن المقام مختلف، فهو مقام خير واستبشار بقدومه، وهو مجيء الصحابة بباكورة ما ظهر من ثمار المدينة، ومن ثمَّ لم يكن المقام يحتاج إلىٰ تلك المبالغة بتكرار صيغة الدعاء بتلك الصورة اللافتة التي جاءت عليها الرواية الأخرىٰ، والمهم أن التكرار في الدعاء عموما " آية الضراعة وأمارة الخشية، ودليل الافتقار إلىٰ فضل الله وعفوه، وبرهان الإقبال من الداعي المستغفر علىٰ

---

(١)صحيح مسلم كتاب الحج، باب الترغيب في سكنىٰ المدينة والصبر علىٰ لأوائها، رقم(١٣٧٤).

من يدعوه ويستغفره، وهو أيضا مظهر عبودية عميقة، ومظهر يقين في وعد الله واثق { ٹ ڈ ڈ ٹ }[1] "[2].

ثم ينتقل بيان النبوة إلىٰ الشق الثاني من الحديث الذي يبدأ بالدعاء أيضا : (اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ....) .

وأول ما يلاحظ بلاغيا في هذا الشق من بيانه (ﷺ)، هو فصله عن الجملة الأم الأولىٰ التي ابتدأ بها الحديث : (اللهم بارك لنا في ثمارنا ، وبارك لنا ...) مع أنهما يتفقان في الإنشائية باستفتاحهما بصيغه (اللهم) ، ولكنه (ﷺ) جاء بها بالفصل علىٰ سبيل القطع والاستئناف، قصدًا إلىٰ إشباع هذا الجزء من المعنىٰ الذي تضمنته تلك الجملة، وذلك لما له من مزيد عناية بالغرض المسوق له الكلام، وهو تحصيل أعلىٰ مراتب البركة، وجل صورها في المدينة، كما تحققت في مكة، بفضل دعاء سيدنا إبراهيم (عليه السلام) لها، وهذا المعنىٰ أقوىٰ، وأعم، وأجل من الدعاء للمدينة بالبركة، أو بما يتعلق بها من الثمار والصاع والمد، ومن هنا آثر بيان النبوة المجيء بها مفصولة حفاوةً بما تتضمنه من معنىٰ، ومعلوم أن القطع والاستئناف لإشباع جزء من المعنىٰ مذهب في كلام العرب " فمن عادتهم إذا جاء في الكلام مقطع ثري وحي ومثير، وله مزيد اختصاص بالمعنىٰ، وقفوا عند هذا المقطع وأشبعوه وزادوه بيانا " [3]، وكأن مجيء تلك الدعوة بعد سابقتها تصعيد وترق في لغة الدعاء .

---

(١) سورة غافر، من الآية : ٦٠ .

(٢)التكرار بلاغة ، د/ إبراهيم الخولي : ١٤٩ ، إصدار الشركة العربية للطباعة ١٩٩٣ م .

(٣) شرح أحاديث من صحيح البخاري : ٢٠٠ .

واللافت في هذا الجزء من الحديث أن أساس المعني هو دعاؤه (ﷺ) ربه للمدينة بمثل ما دعا به إبراهيم (عليه السلام) ربه لمكة، وهذا ما جاء في نهاية الحديث في قوله: (وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك به لمكة...) ، ولكن بيان النبوة لم يكن ليقذف بتلك الجملة هكذا في بدء الشق الثاني من الحديث مع أنها أساس المعنىٰ وجذره ومصبه دون أن يهيئ لها باستعطاف ربه –سبحانه– ، والتقدمة بين يدي دعائه بالإقرار بكمال العبودية لله –سبحانه– ، وذكر منازل القربىٰ منه (عز وجل) ، وهذا من حسن توسله (ﷺ) في الدعاء بالتمهيد له بما هو مظنة استجابة دعائه ، وهذا من بالغ أدبه (ﷺ) مع ربه وبخاصة أن لغة الخطاب المباشر كانت هي البادية علىٰ طابع هذه الجملة؛ حيث تكررت كاف الخطاب ثماني مرات، وكأنه (ﷺ) يعلم الأمة كيفية الأدب والوقار في خطاب رب العالمين- سبحانه -وفيها إلىٰ جانب ذلك ما يشعر بارتقاء روحه (ﷺ)، وذوب مشاعره، وهو يعرج في رحاب ربه بهذا الدعاء، وهو يخرج من أعماق نفسه، وسويداء قلبه، ولذا بدت فيه أيضا لغة التأكيد بـ (إن) أربع مرات، وكان هذا التأكيد متناغما أشد التناغم مع جلال هذا الخطاب.

وإذا كان النبي (ﷺ) هيَّأ لمطلوبه بتلك التقدمة، وهذا من البلاغة العالية بمكان؛ فأرىٰ أيضا حسن الترتيب باديا في بنائها حيث بدأها بما يخص سيدنا إبراهيم (عليه السلام) بقوله : (إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك)، ثم يعود لسيدنا إبراهيم (عليه السلام) فيخبر عنه (وإنه دعاك لمكة) ، ثم يعود (ﷺ) إلىٰ ما يرتبط به (وإني أدعوك للمدينة بمثل...) ، فهو (ﷺ) يخبر بجملة ليرتب عليها جملة أخرىٰ هي مقصوده الأصلي، وكأنه يمهد للثانية بالأولىٰ، وهذا من الكلام العذب الفخم ، واللغة العالية مع سهولتها ووضوحها التي لم تتوفر لغيره (ﷺ) من البشر.

وقد تبدىٰ حسنُ الترتيب بين مفردات الجملة الأولي من بنائها أيضا (إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك، وإني عبدك ونبيك) فبدأها النبي (ﷺ) بالعبودية، وهي أعلىٰ منازل القربىٰ من الله (ﷻ) ،وأعظم المقامات، وفيها دلالة بالغة علىٰ سلامة قلب العبد، وغاية طاعته، ومحبته لربه وانقياده لأوامره واجتنابه لنواهيه ، وذلك بما توحيه أصل دلالتها، وما تدور حوله مادتها من الخضوع والإذعان ، يقول الراغب : " العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل ، و لا يستحقها إلا من له غاية الفضل، وهو الله تعالىٰ " (١).

والعبودية " أشرف المنازل، ولذا ذكره في الكتاب في أشرف المواطن، كمقام الإسراء، وإنزال الكتاب عليه " (٢).

وإضافة لفظ (عبد) إلىٰ كاف الخطاب في الحديث تُبْعِد عن الكلمة العبودية المصحوبة بالذل والاستكانة لأحد من البشر، بل هي عبودية لخالق البشر- جل في علاه – ففيها تشريف وتعظيم ، وتذلل وإذعان لمن له غاية الفضل والإنعام والإحسان -سبحانه-، وهذا مما يتناغم مع مقام الدعاء.

ثم يرتقي بيان النبوة لما هو أجل وأدق بقوله (ﷺ) : (وخليلك)، فالعبودية ينالها كثير من البشر، وتتفاوت بحسب درجة إخلاصهم وقربهم من ربهم ، أما الخُلَّة فلم ينلها سوىٰ نبيِّين كريمين من البشر ،وهما إبراهيم (عليه السلام)، ونبينا محمد

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانىٰ: ٣٢٢ . تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان.

(٢)دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، لابن علان الصديقي : ٢/ ٢٧١ ، اعتنىٰ بها: خليل مأمون شيحا، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

-عليه أزكىٰ الصلوات وأتم السلام -، فعنه (ﷺ) أنه قال : ((إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا)) [(١)] ، وإذا كان القرآن الكريم سجل خلة إبراهيم (عليه السلام) في سورة النساء في قرآن يتلىٰ إلىٰ يوم القيامة فصارت معلومة ومعروفة ، فيأبىٰ الله (عز وجل) إلا أن يختم السورة بما هو أجل وأعظم، فيخبر بشهادته لنبينا (ﷺ) بتبليغ كتابه ، وشهادة الملائكة فيقول: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [(٢)] .

والمهم أن الخلة من أعظم مقامات العبودية، وأعظم مراتب المحبة ، قال الزجاج: " الخليل المحب الذي ليس في محبته خلل " [(٣)] ، وقال ابن تيمية : "

---

(١) سنن ابن ماجه، كتاب المقدمة، فضل العباس بن عبد المطلب رضىٰ الله تعالىٰ عنه، رقم(١٤١).

(٢) [الآية من سورة النساء، رقم :١٦٦] ، واستطردت إلىٰ ذكر ذلك ؛ لأن اتخاذ الله إبراهيم(عليه السلام) خليلا مشهور ومعلوم ، أما اتخاذ الله النبي محمد خليلا فليس بمعلوم عند كثير من العوام ، وليس بمحفوظ؛ لأنه لم يسجل في القرآن الكريم ، ولذلك خطأ العلماء من يقول : إبراهيم خليل الله ، ومحمد حبيب الرحمن ؛ لأنهم بذلك ينقصون من قدره (ﷺ) ومنزلته ؛ اعتقادا منهم أنه لم يثبت له (ﷺ) أن الله اتخذه – أيضا – خليلا ، وأن المحبة أفضل من الخلة ، يقول ابن تيمية : " وقول بعض الناس إن محمدا حبيب الله ، وإبراهيم خليل الله ، وظنه أن المحبة فوق الخلة قول ضعيف فإن محمدا أيضا خليل الله كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة " مجموع الفتاوىٰ ورسائل فضيلة الشيخ/ محمد بن صالح العثيمين – رحمه الله – : ١/ ٣١٩ ، دار الثريا للنشر ، ط ١ ، ١٤٣٠ هـ .

(٣) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي: (١/ ٤٧٨) ، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولىٰ – ١٤٢٢ هـ

هي كمال المحبة المستلزمة من العبد كمال العبودية لله " [1] ، وقال الراغب : " والخلة : المودة إما لأنها تتخلل النفس أي تتوسطها ، وإما لأنها تتخلل النفس فتؤثر فيه تأثير السهم في الرمية " [2].

ثم يرتقي بيان النبوة إلىٰ أعلىٰ مراتب الاصطفاء فيقول : (ونبيك) وتلك هي أعلىٰ درجات العبودية ،فالأنبياء هم خواص الخواص من البشر .

وهذا الترتيب الدقيق من النبي (ﷺ) لتلك المفردات فيه تصعيد وترق بالغ ، وكان مناسبا غاية التناسب وفي كمال الملاءمة لمقام الدعاء ، وما يتطلبه من الترقي في القرب والتدرج في الوصال .

والملاحظ أن النبي (ﷺ) ذكر في الثناء علىٰ إبراهيم (عليه السلام) وصف الخلة بينما لم يجعلها صفة له، واقتصر علىٰ صفتي العبودية والنبوة، " ولم يقل : وخليلك، مع أنه خليل، كما صرح به في أحاديث عدة ، قال الأبي : رعاية للأدب في ترك المساوة بينه وبين آبائه وأجداده الكرام ، وقيل : عدم التصريح بذلك مع رعاية الأدب أفخم "[3].

وبعد تلك التهيئة لمطلوبه (ﷺ) الذي هو مصب المعنىٰ ومقصوده الأهم، جاء معبرا عنه بقوله: (وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه) ، ولغة التشبيه هي اللغة البادية في بيانه (ﷺ) وقد اتخذها وسيلته في الإبانة عن مطلوبه ؛

---

(١) الفتاوىٰ الكبرىٰ لابن تيمية (٥/ ١٩٦) دار الكتب العلمية ، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٩١).

(٣) شرح الزرقاني علىٰ الموطأ (٤/ ٣٤٤).

حيث شبَّه رجاء تحقيق إجابة دعائه للمدينة وتحصيل الخير لها ، بدعاء سيدنا إبراهيم(عليه السلام) لمكة.

واللافت للنظر أنه (ﷺ) كان من الممكن أن يقول : وإني أدعوك للمدينة بما دعاك به إبراهيم لمكة ، أو كما دعاك به إبراهيم لمكة ، ويكون التشبيه أيضا ، ولكن التعبير بلفظ المثلية هنا (بمثل ما دعاك ...) يعطي دلالة لا تعطيها هذه التعبيرات القاصرة ، وكأنه(ﷺ) وهو يعبر بتلك المثلية يستحضر دعاء النبي إبراهيم (عليه السلام) لمكة بذاته ولفظه تماما، ويصرف هذا الدعاء للمدينة ، وكأنه ينطقه بلفظه ، ويردده بكلماته ، ويغمره فيضٌ من الخشوع وشدة الضراعة، والشعور بالقرب والمناجاة العذبة الذكية الطاهرة التي غشيت سيدنا إبراهيم في توجهه لربه وهو يدعوه لمكة .

وهذا الدعاء من سيدنا إبراهيم لمكة سجله القرآن في موطنين اثنين: الأول في أطول سورة فيه، وهي سورة البقرة، والثاني في سورة شرَّف الله هذا النبي الكريم وأعلىٰ من منزلته وقدره وسماها علىٰ اسمه ؛ احتفاء به وبدعائه لمكة ، وليظل هذا الدعاء يُردَّدَ إلىٰ قيام الساعة .

وهذه السورة الكريمة أفاضت في ذكر دعائه(عليه السلام) في سبع آيات متتاليات [1] ابتدأت برجاء تحقق الأمن ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾ [2] وهو من أهم المطالب الدنيوية ، وانتهت بطلب المغفرة ، وهو من أهم مطالب الآخرة ، بل

(١) سورة إبراهيم : من الآية رقم (٣٥) إلىٰ الآية رقم (٤١).

(٢) سورة إبراهيم،جزء من الآية:٣٥.

هو أساس النجاة فيها ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا ٢٨﴾[1] .

ومن التشابه البديع في سياق هذا الحديث هو دعاؤه (ﷺ) لثمار المدينة بالبركة، وكذلك كان دعاء إبراهيم (عليه السلام) لأهل مكة بقوله في سورة البقرة : ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[2] وفي سورة إبراهيم : ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾[3] ، وهذا من التناسب البديع الخفي بين طرفي الصورة التشبيهية في بيانه (ﷺ).

هذا الدعاء الطويل الذي سجله القرآن الكريم في سورة إبراهيم (عليه السلام)كان في باله وعقله (ﷺ) فأراد أن ينقله بالكلية في دعائه للمدينة في تلك الجملة الموجزة، وهذا بلاشك إيجاز قصر بليغ، بل من أدق وأروع ما وقفتُ عليه من نماذج له، ولا يؤتىٰ هذا النوع من الإيجاز " إلا من رزق حدة في الذهن ، وإرهافا في الحس البياني ، ومعرفة تامة بدلالة المفردات ، وإدراكا واعيا لأحوال المخاطبين ، وقد اجتمع ذلك كله في الرسول (ﷺ) علىٰ أكمل وجه "[4] .

---

(١) سورة نوح، الآية:٢٨.

(٢) سورة البقرة،جزء من الآية:١٢٦.

(٣) سورة إبراهيم، جزء من الآية:٣٧.

(٤) الحديث النبوي الشريف (مصطلحه – بلاغته – كتبه) ، د/ محمد الصباغ : ١٠٦ ، ط المكتب الإسلامي ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م .

وهذه السمة من إيجاز القصر تعد من أهم السمات البارزة في بيانه (ﷺ) وقد أكدها أبو هلال العسكري بقوله : " وإذا أردت أن تعرف صحة ذلك فحلها – أي الأحاديث – وابنها بناء آخر فإنك تجدها في أضعاف مضاعفة " [1].

وقد أشار النبي (ﷺ) إلىٰ ذلك فقال : ((أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَاخْتُصِرَ لِي الْحَدِيثُ اخْتِصَارًا)) [2].

ومع ما حملته تلك الصورة التشبيهية في بيانه (ﷺ) من وافر الخير ، والبركة الحسية والمعنوية، والدنيوية والأخروية لأهل المدينة ، في أوجز لفظ وأبينه أراه (ﷺ) يتوسع في التماس الخير للمدينة بما هو أكثر من دعاء إبراهيم (عليه السلام) لمكة ، وذلك في ختام بيانه (ﷺ) بتلك الجملة التي أفاضت بالإيجاز كسابقتها وذلك بقوله : (ومثله معه) أي : ومثل هذا الدعاء من إبراهيم لمكة مع دعائي الذي أطلبه للمدينة كذلك ، وكأنه (ﷺ) يرغب في أن يحصل من الخير والبركة والنماء والرزق وغير ذلك في المدينة ضعف ما وُجِد في مكة بفضل دعاء إبراهيم (عليه السلام).

وهذا الحديث كما ذكر الحافظ بن حجر وغيره من الأدعية بالبركة للمدينة " اسُتدِلَّ به علىٰ تفضيل المدينة علىٰ مكة، وهو ظاهر من هذه الجهة – يقصد من ناحية البركة – لكن لا يلزم من حصول أفضلية المفضول في شيء من الأشياء، ثبوت الأفضلية له علىٰ الإطلاق " [3] ، وهو بذلك يثبت أفضلية المدينة من ناحية

---

(١) الصناعتين : ١٧٨ .

(٢)سنن الدارقطني، كِتَابُ النَّوَادِرِ ، حديث رقم : (٤٢٧٥)، (٥/ ٢٥٤)، حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

(٣)فتح الباري لابن حجر (٤/ ٩٨).

البركة ، ولكن يثبت الأفضلية لمكة من ناحية تحصيل الثواب الأكثر في الصلاة في مسجدها الحرام ، وغير ذلك من المواطن التي ثبت لها الأفضلية في مكة .

وكما بدأ راوي الحديث ببيان سبب وروده ، يختمه ببيان فعلي منه(ﷺ) بعد ما كشف عن بيانه القولي فيقول: (ثم يدعو أصغر وليد يراه فيعطيه ذلك الثمر) ، وفي هذا الإخبار منه (ﷺ) ما يدل علىٰ حرصه الشديد، وكذلك حرص كل الصحابة (ﷺ) في نقل كل ما صدر عنه (ﷺ)، مما يكشف عن شدة أمانتهم في نقل هذا الدين إلينا في حرص بالغ ووعي أمين .

وكان هذا الصحابي الجليل دقيقا في تصوير هذا الختام ، لا يقل دقة وبلاغة كما في نقل سبب ورود الحديث فيعبر في بداية جملته بالحرف (ثم)، وليس ثمة شك في أنه لا يُقْصَد هنا المعنىٰ الحقيقي لهذا الحرف من إفادة التراخي الزمني ، ولكن البلاغة التي طبع عليها لسان هذا الصحابي بفضل صحبته للنبي (ﷺ) هي التي دعته لأن يصطفي هذا الحرف في بيانه ؛ ليصور بُعد ما بين بيانهِ وبيان المصطفىٰ (ﷺ)، فتلك لغة البشر، وتلك لغة موحاة إليه (ﷺ) من خالق البشر .

وربما كان التعبير بهذا الحرف ليصور من خلاله استعظامه لهذا الصنيع الذي يحكيه عن رسول الله (ﷺ) ، وحُقَّ له ذلك ، فهذا الصنيع من رسول الله (ﷺ) علىٰ بساطته يؤسس لمنهج تربوي فريد في معاملة الأطفال، والإحسان إليهم، وإدخال السرور عليهم بالهدايا، وبما تَطِيب به نفوسُهم ، ولذلك كان هذا الصحابي الجليل حريصا علىٰ أن يصور المشهد بجملته، ويستحضره أمام أعيننا بالأفعال المضارعة في الدلالة عليه (يدعو – يراه – يعطيه) ولله درُّه وهو يحتفي بذلك الثمر فيشير إليه باسم الإشارة الذي للبعيد (ذلك الثمر) اقتداءً برسولنا الكريم، وهو يحتفي به بهذا الدعاء الذي كان السمت العام لبناء لغة الحديث .

المقام الرابع: المدينة لا يدخلها الدجال.

عن أَنَس بْنُ مَالك (رضي الله عنه)، عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ)، قَالَ: «لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ، إِلَّا مَكَّةَ، وَالمَدِينَةَ، لَيْسَ لَهُ مِنْ نِقَابِهَا نَقْبٌ، إِلَّا عَلَيْهِ المَلاَئِكَةُ صَافِّينَ يَحْرُسُونَهَا، ثُمَّ تَرْجُفُ المَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلاَثَ رَجَفَاتٍ، فَيُخْرِجُ اللَّهُ كُلَّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ»(١).

الغرض من هذا الحديث هو بيانُ فضيلة اختص الله بها مكة والمدينة ؛ حيث لا يستطيع الدجال أن يطأهما ، ومقام الحديث يحكي مشهد محاولته دخول المدينة فيفاجأ أن الله (ﷻ) جعل علىٰ كل نقب من نقابها ملائكةً يحرسونها ويمنعونه من دخولها ؛ إكرامًا وتعظيمًا لها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج منها كل كافر ومنافق ، ولا يبقىٰ فيها إلا أهل الإيمان ، وخالص أهل التوحيد .

وقد اتسم نظم هذا البيان بخصائص بلاغية وفَّت بالدلالة علىٰ الغرض منه ، وكان من أبرزها غلبة الأسلوب الخبري علىٰ طابع الحديث ، وقد جاء متناغما مع مقام الإخبار بهذا الأمر المستقبلي الذي يحكي مشهدا من مشاهد علامات الساعة ، بل أول علامات الساعة الكبرىٰ .

وقد بدت دقة بيان النبوة جلية في بناء العبارة الأولىٰ من الحديث (ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة) وكان من الممكن أن يؤدي المعنىٰ بجملة (الدجال سيطأ كل بلد إلا مكة والمدينة) ، وفرق كبير بين التعبيرين ، فبيان النبوة صدر بجملة في غاية التوثيق والوكادة ؛ حيث القصر الذي هو أشهر أساليب التوكيد وأقواها ، ويحتل مرتبة عالية بينها ؛ إذ هو يشتمل علىٰ جملتين في جملة واحدة ، يقول أستاذنا الدكتور صباح دراز : " ومن الواضح أننا لو رتبنا أساليب التوكيد وأدواته ترتيبا

---

(١)صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب لا يدخل الدجال المدينة، رقم(١٧٨٢) .

تصاعديا حسب قوة التأكيد لكان القصر قمة وغاية وذلك أنه تأكيد فوق تأكيد ؛ لأنه يشتمل علىٰ جملتين فهو تركيز شديد في الأسلوب " [1].

كما آثر بيان النبوة أقوىٰ طرقه ، وهو طريق النفي والاستثناء الذي يحمل أعلىٰ طاقات القوة والتأكيد للمعنىٰ " ويكاد يكون الأصل في طرق القصر ، فإذا قلت مثلا : ما جاءني إلا زيد ، فهو تعبير عن مجيء زيد بأبلغ وجه وأوكده ، حتىٰ قالوا إنه تأكيد علىٰ تأكيد " [2].

وهذا التأكيد مما يتناسب مع عظمة هذا الخبر وقوته في نفسه وبخاصة هو خبر غيبي لما يقع بعد، ومن ثمَّ أراد النبي (ﷺ) أن يقرره في نفوس الصحابة، والسامعين لبيانه من بعدهم فأفرغه في هذا القالب المتين الموثق .

وهذه الجملة قصر فيها النبي (ﷺ) عموم كل بلد علىٰ وطء الدجال لها ، قصر موصوف علىٰ صفة قصرا حقيقيا ؛ لأن النفي هنا موجه إلىٰ كل ما عدا المقصور عليه علىٰ سبيل الادعاء والمبالغة بدليل ما استثناه النبي (ﷺ) عقب هذه الجملة القصرية من أن مكة والمدينة لا يطؤها الدجال وبدليل – أيضا – ما جاء عند أحمد في الإخبار عن الدجال : ((... يَبْلُغُ سُلْطَانُهُ كُلَّ مَنْهَلٍ، لَا يَأْتِي أَرْبَعَةَ مَسَاجِدَ: الْكَعْبَةَ، وَمَسْجِدَ الرَّسُولِ، وَالْمَسْجِدَ الْأَقْصَىٰ، وَالطُّورَ)) [3].

---

(١) أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية ، د/ صباح دراز : ٩ ، ط أولىٰ، مطبعة الأمانة .

(٢) حاشية عبد الحكيم علىٰ المطول : ٣٠٤ ، مطبعة محرم أفندي ، ١٣٠٦ هـ .

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل أحاديث رجال من أصحاب النبي (ﷺ)، ٥/ ٣٦٤، رقم(٢٣١٣٩)، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

وإذا كان أسلوب القصر أفاد تأكيد وطء الدجال لكل بلد ، فقد أضفىٰ النبي (ﷺ) عنصرا بيانيا آخر؛ حيث عبر بـ (من) بما تفيده من الدلالة علىٰ العموم والاستغراق و(من) هذه ، وإن كان يسميها النحاة زائدة ، ولكن النظرة البلاغية تأبىٰ أن يرد أي لفظ دون الدلالة علىٰ معنىٰ ، وإلا كان التعبير به حشوا ، وهذا مما لا يُقبل في الكلام العادي ، فكيف به في كلام أبلغ البشر ؟ ولذلك يقول الإمام عبد القاهر : " وهكذا يكون الأمر أبدا، كلما زدت شيئا وجدت المعنىٰ قد صار غير الذي كان"[1] ، ويقول ابن الأثير : " فالألفاظ وضعت لتكون أدلة علىٰ المعاني ، فإذا وردت لفظة من الألفاظ في كلام مشهود له بالفصاحة والبلاغة ، فالأولىٰ أن تحمل تلك اللفظة علىٰ معنىٰ "[2] .

وعلىٰ هذا فإن (من) هنا جاءت في بيانه (ﷺ) للدلالة علىٰ الاستغراق والعموم والاستقصاء لكل بلد بالإخبار بأنها ستنال نصيبها من وطء المسيح لها، إلا ما استثناه النبي (ﷺ) بعد ذلك واتساقا مع تلك الدلالة التي أفادتها (من) جاء تنكير لفظ (بلد) ، والنكرة في سياق النفي تؤكد معنىٰ العموم ، كما نلحظ في بيانه (ﷺ) أنه اصطفىٰ أداة النفي (ليس)دون غيرها من أدوات النفي، وذلك لما تفيده من الدلالة علىٰ نفي مضمون الجملة عموما في الماضي والحال

---

(١) دلائل الإعجاز :٣٨٩ .

(٢)المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير: ٢/ ١٥٢، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة.

والاستقبال[1]، وهذا مما يتناسب مع إبهام هذا الحدث ؛ لأنه غيبي ، ولا يتقيد وقوعه بزمن معين.

كما تتبدَّىٰ دقة بيان النبوة في اصطفاء التعبير بلفظ (بلد) دون : ما من موضع ، أو ما من مكان ... ، وذلك من التناسب في التعبير بلفظ بلد مع الدلالة علىٰ مقصد الدجال من وطئه لها، وهو فتنة أهلها .

وبعد ما أثارته تلك الجملة من الخوف والفزع بإعلامه (ﷺ) بوطء الدجال لكل بلد إذا به – صلوات الله وسلامه عليه – يستثني (مكة والمدينة) من هذا الحدث المثير المفزع ، وتلك منقبة عظيمة لهما ، وخصوصية زائدة لأهلهما ؛ حيث لا يتعرض ساكنوهما لتلك الفتنة العظيمة وهذا استثناء من الاستثناء السابق، ولو أن بيانه (ﷺ) قال مباشرة : إن الدجال لا يطأ مكة والمدينة ، أو غير ذلك من التعبيرات القاصرة لما أفاد المبالغة في الدلالة علىٰ تلك المنقبة ؛ إذ في هذا التعبير مجرد نفي لوطء الدجال لهما ، ولكن ليس فيه ما يثبت عموم وطئه لغيرهما ، وإثباتُ وطئِهِ لغيرهما أولا ، وتأكيدُ ذلك بأسلوب القصر، ثم إخراجُهما من حيز هذا الإثبات بأداة الاستثناء (إلا) ثانيا، فيه ما يُشعر بعظم تلك الخصوصية ، وأن الله (ﷻ) لم يشأ لأهل هاتين البلدتين أن يتعرضا لفتنته وما يأتي به من الشبهات، كما يتعرض غيرهما من سائر أهل البلاد .

---

(١)ينظر: أساليب النفي في القرآن، د / أحمد ماهر البقري: ٨٢، ٨٧، دار المعارف – ط ١، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م. وينظر : الجني الداني في حروف المعاني للمرادي ص: ٤٩٩ ، ت: فخر الدين قباوة ، أ/ محمد نديم فاضل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط أولىٰ ، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م .

كما أن أسلوب بيانه (ﷺ) يفيد تأكيد تلك الخصوصية لهما وحدهما ، وينفيها عن غيرهما ، نفيا مؤكدا محققا ، وذلك مما يبرز عظيم فضلهما علىٰ سائر البلاد ؛ حيث لا يتعرضان لأعظم فتنة علىٰ وجه الأرض ، بدليل ما أخرجه الحاكم من قوله (ﷺ) من حديث هشام بن عامر قال : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : ((مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ خَلْقٌ أَكْبَرُ مِنْ الدَّجَّالِ))[1] .

والتعبير بالفعل (سيطؤه) يفيض بعدة دلالات ، فحرف التسويف الذي اقترن به يشعر بقرب خروجه ، وهذا ما جاء علىٰ لسان الدجال ذاته في حديث فاطمة بنت قيس (رضي الله عنها)، وفيه قوله : ((...وَإِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّي، إِنِّي أَنَا الْمَسِيحُ، وَإِنِّي أُوشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي فِي الْخُرُوجِ،...))[2] .

والتعبير بصيغة المضارعة (يطؤه) استحضار لصورته البشعة وهو يطأ كل بلد ، مما يبرز رعبه وتصويره أمام مرأىٰ العيون ، وهذا مما يكشف عن عظيم المنقبة التي منَّ الله بها علىٰ المدينة ؛ حيث حفظت بموعود الله من رعبه، ويؤيده حديث نفيع بن الحارث (رضي الله عنه) قال : ((لَا يَدْخُلُ المَدِينَةَ رُعْبُ المَسِيحِ الدَّجَّالِ..))[3] .

---

(١)صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في بقية من أحاديث الدجال، رقم(٢٩٤٦)

.

(٢)صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قصة الجساسة، رقم:(٢٩٤٢).

(٣) صحيح البخاري كتاب فضائل المدينة، باب لا يدخل الدجال المدينة، رقم(١٧٨٠)، وفي كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، رقم(٦٧٠٧)، ومسند الإمام أحمد بن حنبل حديث أبي بكرة نفيع بن الحارث بن كلدة رضىٰ الله تعالىٰ عنه، ٥/ ٤٣، رقم(٢٠٤٥٩)، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح. وفي ٥/ ٤٧ ح(٢٠٤٩٣)، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين.

والتعبير بلفظ الوطء خاصة دون (سينزل، أو سيدخل، أو سيلج) له عدة دلالات منها: الدلالة علىٰ التمكن في فعل أشياء لايمكن لغيره أن يفعلها، ولعل العلاقة الشرعية بين الزوج وزوجه سميت بهذا الاسم ؛ نظرًا لهذا المعنىٰ، كما أن اللفظة تشعر بقصر مدة نزوله في كل بلد، وتنقله من بلد إلىٰ بلد ، ففي اللسان : " والوطَأَةُ : هم أبناء السبيل من الناس ، سُمُّوا وَطَأَة ؛ لأنهم يطؤون الأرض .. والواطئة : المارَّة والسَّابلة " [1] ، ويؤيد هذا المعنىٰ ما جاء في الإخبار عنه بقوله (ﷺ) : ((... تُطْوَىٰ لَهُ الأَرْضُ فِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا)) [2] وفي رواية الطبراني : ((يَسِيحُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا يَرِدُ كُلَّ بَلْدَةٍ غَيْرَ هَاتَيْنِ الْبَلْدَتَيْنِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ)) [3] .

كما أن مبنىٰ الفعل ذاته يدل علىٰ شدة بطشه وإهلاكه ، والدمار والخراب والفساد الذي سيحدثه من أثر وطأته ، ففي اللسان – أيضا – " وطئ الشيء يطؤه وطأ : داسه ، والوطأة الخذة الشديدة ، وفي الحديث : ((اللهمَّ اشدُد وطأتَكَ علىٰ مُضَرَ)) [4] : أي خذهم أخذا شديدا ، والوطء في الأصل : الدوس

---

(١) لسان العرب (١/ ١٩٦) بتصرف .(وطأ)

(٢) مسند أبي يعلىٰ مُسْنَدُ جَابِرٍ ،رقم : (٢١٧١) ، (٢/ ٤٦٧)، تحقيق: مركز البحوث بدار التأصيل، دار التأصيل، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٨ هـ – ٢٠١٧ م.

(٣)المعجم الأوسط ، أبو القاسم الطبراني : (٩/ ٨٥)،"تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين – القاهرة.

(٤)صحيح البخاري كتاب صفة الصلاة، باب يهوي بالتكبير حين يسجد، رقم(٧٧١)، ، وصحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، رقم(٦٧٥).

بالقدم ، فسمي به الغزو والقتل؛ لأن من يطأ علىٰ الشيء برجله فقد استقصىٰ في هلاكه وإهانته " [1] . كما تناغم جرس الكلمة وإيقاعها الصوتي في تصوير المعنىٰ والدلالة عليه في دقة تامة، فالكلمة كل حروفها متحركة ما بين حركتي الفتح والضم ، تأمل صوت الطاء وهي من الحروف التي تتسم بالشدة ،كما تعد من أقوىٰ الحروف حيث تضم صفات قوية ، ففيها الاستعلاء والإطباق وكذلك الجهر والشدة [2] . " والشدة من علامات قوة الحرف فإن كان مع الشدة جهر أو إطباق أو استعلاء فذلك غاية القوة في الحرف " [3] .

كما لا تغفل دلالة الهمزة والهاء اللتان ختم بهما الفعل، وهما من حروف الحلق وما فيهما من حركه الضم كل هذا يتناغم مع البناء اللغوي للفعل في الدلالة علىٰ الأهوال والشدائد التي سيقاسيها الناس من دخول الدجال بلادهم وما يتعرضون له من مخاطر وفتن ، وما ينزله بكل أرض من فساد ووبال ودمار ، وقد جاء التعبير بلفظ (الدجال) متناغما و متناسبا مع دلالة هذا الفعل ، فـ (دجَّال) صيغة مبالغة من الدجل؛ للدلالة علىٰ كثرة دجله وخداعه، وتعميته وإضلاله.

وتتبدَّىٰ بلاغة النبوة في دقة الترتيب بين هاتين المفردتين (إلا مكة والمدينة) فالسياق وإن كان ينفي عنهما وطأة الدجال ودخوله فيهما، إلا أن

---

(١) لسان العرب (١/ ١٩٧) (وطأ).

(٢) ينظر: مناهج البحث في اللغة ، د/ تمام حسان : ١٠٢ ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط ٢ ، ١٣٩٤ هـ – ١٩٧٤ م .

(٣) الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة بعلم مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها وألقابها لأبي محمد مكي : ١١٧ ، ت : أحمد حسن فرحات ، ط: دار عمار ، الأردن ، ط ٣ ، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م.

مقصود الحديث الأعظم ، والغاية من الإخبار به هو بيان خصوصية المدينة، وإثبات تلك الخصوصية لها منفردة، ومن هنا أخرها النبي (ﷺ) في الذكر ليبني عليها كلامه في شأنها فقال : " ليس له من نقابها نقب[1] إلا عليه ... " بعود الضمير في (نقابها) علىٰ أقرب مذكور، وهو لفظ المدينة، ولو أن النبي (ﷺ) قال : (إلا المدينة ومكة) ،ولو قال أيضا : (الدجال لا يطأ مكة والمدينة، ويطأ كل بلد) ، لعاد الضمير علىٰ غير المقصود ، كل هذا دفعتهُ فطرةُ اللغة عنده (ﷺ)، دون أدنىٰ تكلف أو تصنع، وجاء بيانه في غاية الانسجام والانسيابية والوضوح والتناغم مع مقصوده.

وجاءت تلك الجملة من بيانه (ﷺ): (ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها) مفصولة عن سابقتها لكمال الاتصال؛ حيث جاءت مبينة لها، وكاشفة عن كيفية عدم وطئه للمدينة، أهو من تلقاء نفسه أم سيُحاول ويُمنع؟

وقد ساقها النبي (ﷺ) هي الأخرىٰ في ثوب أسلوب القصر الذي شكل البناء اللغوي للجملة بتمامها ؛ حيث قصر النبي(ﷺ) أيَّ نقبٍ من نقاب المدينة يحاول الدجالُ اقتحامها منه، علىٰ كونه عليه الملائكة صافين يحرسونها ويمنعونه،

---

(١) النقب بفتح النون وسكون القاف جمعه نقاب وأنقاب ، وقال بعضهم : أنقاب جمع نَقَب ، بفتح النون والقاف ، وأصل النقب : الطريق بين جبلين ، والمراد هنا : مداخل الناس إلىٰ المدينة ، وهي أبوابها وفوهات طرقها التي يدخل إليها منها . ينظر : النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير: ٥/ ١٠٢ ، تحقيق: طاهر أحمد الزاوىٰ – محمود محمد الطناحي المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
وينظر : فتح الباري لابن حجر : (٤/ ٩٦).

قصر موصوف علىٰ صفة، قصرا حقيقيا تحقيقيا، وفيه تأكيد قوي علىٰ غاية حفظ المدينة ، وعدم تمكن الدجال من دخولها بأية وسيلة.

وفي إفراده (ﷺ) للمدينة بتلك الجملة القصرية الدالة علىٰ منع الدجال من دخولها ، مع أنه أخبر عن عدم دخوله إياها في سياق الاستثناء السابق (إلا مكة والمدينة) اهتمام بالغ بها، وتأكيد منه (ﷺ) علىٰ عظيم فضلها ؛ حيث نفي دخول الدجال عنها مرتين ، مرة في السياق العام ، وأخرىٰ في سياق خاص منفرد ، وهذا آكد في الدلالة علىٰ عدم قدرة الدجال وعجزه عن اقتحام المدينة ، وأن محاولاته كلها ستبوء بالفشل.

وألاحظ أن النبي (ﷺ) أبان عن هذا المعنىٰ، وهو منع الدجال من دخولها بالأسلوب الكنائي ، وهذا تأكيد آخر للمعنىٰ؛ حيث جاءت تلك الجملة من بيانه (ﷺ) كناية عن شدة الحماية والتحصين للمدينة، وكان التعبير بها بمثابة الدليل والبرهان علىٰ ذلك ، ولا شك أن إثبات المعنىٰ مصحوبا بدليله، آكد في إثباته ، فضلا عما أفادته تلك الكناية من تصوير المعنىٰ في صورة حسية لا يداخلها شك، يقول الإمام عبد القاهر: " إن كل عاقل يعلم إذا رجع إلىٰ نفسه أن إثبات الصفة بإثبات دليلها ، وإيجابها، بما هو شاهد في وجودها آكد وأبلغ في الدعوىٰ أن تجئ إليها فتثبتها هكذا ساذجا غفلا[1].

وقد تناغمت اللبنات المكونة لتلك الجملة من بيانه (ﷺ)، وتضامَّت مع بعضها في الدلالة علىٰ تأكيد عجز الدجال عن اقتحام المدينة فوق ما أفاده التعبير بالقصر والتعبير الكنائي ، فالتعبير بحرف النفي (ليس) للدلالة علىٰ نفي تمكن الدجال من أيٍ من نقابها متىٰ وُجِدَ في آخر الزمان ، وكذلك التعبير بلفظ المسند (نقب) نكرة بما تفيده من معنىٰ العموم والشمول ، أيْ : أي نقبٍ كان ، وكذلك

(١) دلائل الإعجاز : ٧٢.

التعبير بالقيد (من نقابها) وما أفادته (من) من معنىٰ الاستغراق والعموم والشمول لكل نقب فيها .

كما يلاحظ في هذه الجملة تقديم هذين القيدين (له) و (من نقابها) علىٰ لفظ المسند (نقب)، وتقديم المتعلق الأول (له) المتعلق بالدجال، فيه تسليط للنفي علىٰ ضميره ، وفي هذا إشعار بمنعه وعجزه ، فعلىٰ قدر ما مُنِحَ من القدرة علىٰ التجوال والسير في أنحاء الأرض كلها ، علىٰ قدر منعه من اقتحام المدينة مِنْ أي مدخل مِنْ مداخلها، أو ثغرٍ من ثغورها .

وتقديم القيد الثاني (من نقابها) ودون أن يقال : (ليس له نقب من نقابها) فيه ما يفيد تأكيد عجزه علىٰ اقتحام بداية ما يقال له نقب من نقابها ، وإلقاء هذا المعنىٰ في النفس أولا ، وإثباته فيها من أول وهلة، بخلاف تعبيرنا القاصر فلا يشعر بذلك المعنىٰ .

وفي تقديم هذين المتعلقين علىٰ لفظ المسند ، (نقب) ثم إيلاؤه بأداة الاستثناء (إلا) تشويق وإثارة للنفس للوقوف علىٰ لفظ المسند إليه الذي جاء في ثوب الجملة الاسمية (عليه الملائكة) والواقعة في محل نصب خبر (ليس)، دلالة علىٰ معنىٰ ثبوت ودوام الملائكة علىٰ كل نقب من نقاب المدينة ، وقد تقدم فيها لفظ المسند (عليه) المتعلق بنقب ؛ لأن الغرض الأهم هو الإخبار عن نقاب المدينة ، وليس الملائكة ، فقُدِّم ما هو أهم وآنس بالسياق ، والتعبير بحرف الاستعلاء فيه ما يُشْعر بشدة تحكمهم، وقوة سيطرتهم علىٰ كل نقب من نقابها ، وتعريف لفظ المسند إليه بأل (الملائكة) التي للعهد الذهني يُشْعر بتضام الملائكة، وإضفاء الهيبة والجلال علىٰ مشهد حراستهم ودفاعهم ، وهذا المعنىٰ أبان عنه بدقة واضحة ما جاء في حديث آخر من قوله (ﷺ) : ((الْمَدِينَةُ

مُشَبَّكَةٌ بِالْمَلائِكَةِ عَلَىٰ كُلِّ نَقْبٍ مِنهَا مَلَكَانِ يَحْرُسانهَا)) [1] ، تأمل قوله (ﷺ): (مشبكة) تجد اللفظة بجرسها وبنائها اللغوي تنطق بكثرة الملائكة وقوة حراستهم ، وكذلك ما جاء في حديث آخر رواه أبو يعلي ولفظة : ركب رسول الله (ﷺ) إلىٰ مجتمع السيول فقال : ((أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِمَنْزِلِ الدَّجَّالِ مِنَ الْمَدِينَةِ؟»، فَقَالَ: «هَذَا مَنْزِلُهُ – يُرِيدُ الْمَدِينَةَ – فَلَا يَسْتَطِيعُهَا، يجدها متمنطقة بالملائكة، عَلَىٰ كُلِّ نَقْبٍ مِنْ نِقَابِهَا مَلَكٌ شَاهِرٌ سِلَاحَهُ لَا يَدْخُلُهَا الدَّجَّالُ)) [2] فقوله (ﷺ) : (متمنطقة) فيه دلالة واضحة علىٰ إحاطة الملائكة بالمدينة من كل جهة فيها ، كما يحيط النطاق بالمرأة، ويؤيد هذا المعنىٰ أيضا ما جاء في رواية الإمام أحمد عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (ﷺ) : ((الْمَدِينَةُ وَمَكَّةُ مَحْفُوفَتَانِ بِالْمَلاَئِكَةِ....))[3] ونعمت تلك المنقبة لها ، وهذا الفضل لأهل الإيمان فيها .

وتتحدد مهام الملائكة بقوله : (صافين يحرسونها) وهذان القيدان حالان من الملائكة، وقد عبر (ﷺ) في الاصطفاف بصيغة اسم الفاعل ؛ وذلك لأن الاصطفاف ثابت ودائم، بخلاف القيد الثاني (يحرسونها) فجاء التعبير فيه بالجملة الفعلية بما تُشْعِر به من الدلالة علىٰ تجدد الحراسة واستمراريتها ، وهذا هو المعنىٰ الأهم والمقصود من وراء وجود الملائكة علىٰ أنقاب المدينة ، فكان إظهاره في صورة المضارعة هو الأنسب والآنس بالسياق؛ وذلك لأن القصد إظهار معنىٰ تحرك الملائكة ، وشأن الحارس أن يكون يقظا يتحرك يُمنةً ويسرة ، وهذا يناسبه التعبير بالمضارعة، يضاف إلىٰ ذلك ما أفادته صيغة المضارعة من

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل مسند أبىٰ إسحاق سعد بن أبىٰ وقاص رضىٰ الله تعالىٰ عنه، ١/ ١٨٣، رقم(١٥٩٣) تعليق شعيب الأرناؤوط: صحيح وهذا إسناد حسن.

(٢) مسند أبي يعلىٰ الموصلي (١١/ ٤٢٦) تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث – دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٤ – ١٩٨٤م.ج

(٣) مسند أحمد : (٢/ ٤٨٣).

استحضار تلك الصورة العجيبة للملائكة وهم يحرسون المدينة (وصيغ المضارعة في ألسنة أصحاب البيان فيها ثراء وعمق وقدرة بارعة علىٰ إحضار المشاهد والمواقف "[1].

ونظير هذا التركيب في البيان القرآني : قوله –تعالىٰ– في شأن موسىٰ (عليه السلام) عندما خرج من مدينة فرعون عندما جاءه رجل من أقصىٰ المدينة وأخبره بما يكيد له الملأ ورغبتهم في قتله، فقال – جل شأنه – حكاية عنه : ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[2] .

فقوله: ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ حالان، جاء الأول منهما بصيغة اسم الفاعل، لما فيه من الدلالة علىٰ ثبوت الخوف لموسىٰ (عليه السلام) وشدة ملازمته له، بينما عبر بالحال الثانية بصيغة المضارعة (يترقب)؛ لأن الترقب يتجدد شيئا فشيئا بما يتطلبه من التلفت الدائم، وشدة الانتظار، والتوقع للمكروه ، وهكذا كان حال هذا النبي الكريم في ذلك الحين .

والمهم أن من أوجه التناسب بين الحالين أيضا مجيء كليهما دون عطف أحدهما علىٰ الآخر وذلك لأنهما كالشيء الواحد، فالدلالة واحدة في البيان القرآني، وهي إبراز شدة خوف موسىٰ (عليه السلام) وكذلك الدلالة واحدة في بيانه(ﷺ) وهي تآزر الحالين في الدلالة علىٰ شدة منع الملائكة وقوة حيطتهم من اقتحام الدجال للمدينة من أي نقب منها .

ويستفاد من إعلامه (ﷺ) بحراسة الملائكة الدائبة للمدينة أنه سيحاول اقتحامها ، وهذا يقتضي المدافعة منها ، وهذا ما أبانت عنه رواية مسلم من

---

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري : ١٤٧ .

(٢) سورة القصص، جزء من الآية:٢١.

حديث فاطمة بنت قيس في قصة تميم الداري والجساسة ومما جاء فيه من قول الدجال : ((فَلَا أَدَعَ قَرْيَةً إِلَّا هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ، فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ كِلْتَاهُمَا، كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً - أَوْ وَاحِدًا - مِنْهُمَا اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلْتًا، يَصُدُّنِي عَنْهَا... الحديث))[1].

ومع محاولته الدائبة في اقتحام المدينة وإصراره علىٰ دخولها ترجف المدينة حينئذ بأهلها .

وعلىٰ هذا التفصيل الذي أبانت عنه الرواية السابقة يتضح أن العطف بالحرف (ثمَّ) في الحديث محل الدراسة في قوله (ﷺ) : (ثم ترجف المدينة بأهلها ...) ليس عطفا لما بعدها علىٰ ما سبقها من حراسة الملائكة للمدينة ؛ إذ لا معنىٰ لذلك؛ إذ كيف يحرسونها ثم ترجف ، وإنما العطف بهذا الحرف علىٰ مقدر محذوف أوضحته رواية مسلم السابقة ، أي يحرسونها ، فيدافعهم فترجف

وفي حديث آخر: ((فَيَأْتِي سِبْخَةَ[2] الْجُرُفِ[3] فَيَضْرِبُ رِوَاقَهُ[4] فيها

---

(١) صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قصة الجساسة، رقم: (٢٩٤٢)

(٢) السَّبْخَة : موضع بالمدينة بين موضع الخندق وبين جبل سلع ، ينظر: سبل الهدىٰ والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، محمد بن يوسف الصالحي الشامي: ٣/ ٤٣٧ ، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

(٣) الجرف: موضع علىٰ ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام. معجم البلدان ، لابن ياقوت الحموي: (٢/ ١٢٨) دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥ م.

(٤) فيضرب رواقه : أي فُسْطَاطه وقبته وموضع جلوسه . ينظر : سبل الهدىٰ والرشاد، في سيرة خير العباد: ٣/ ٤٣٧ .

فَتَرْجُفُ الْمَدِينَةُ)) [1]، وفي آخر : ((فينزل بالسبخة فَتَرْجُفُ الْمَدِينَةُ)) [2].

والتعبير بالحرف (ثم) في الحديث محل الدراسة يشعر بتحريك الأحداث لما هو أشد وأعظم، وهو زلزلة المدينة بأهلها ، وهو في هذا السياق يصور الانتقال من مشهد محاولته اقتحام المدينة وتدافعه مع الملائكة الذين يحرسونها منه، إلىٰ هذا المشهد العظيم الرهيب ، وهو رجفتها بأهلها .

والتعبير بحرف العطف الفاء في الروايتين الأخرتين يدل علىٰ ترتب الرجف للمدينة علىٰ نزول الدجال بالسبخة، مما يدل علىٰ شدة وطأة نزوله في هذا المكان، وقوة تأثيره، مما يجعل المدينة ترجف بأهلها.

وهكذا نجد أن تعدد الأحاديث والروايات في المعنىٰ الواحد هو وسيلة لبيان المعنىٰ، واكتمال المغزىٰ، ووضوح الدلالة ، والدارس في البيان النبوي ينبغي أن تكون عينُه علىٰ الروايات التي تدور جميعها حول معنىٰ واحد فيجعل من كل راوية أو حديث وسيلة لإيضاح ما قد تُوجزه أوْ لا تكشف عنه الرواية الأخرىٰ .

وتظهر قوة الأحداث وشدتها بصورة أعمق في اختياره (ﷺ) للفعل (ترجف) معطوفا للحرف (ثم)، فهو يشعر بوقعه وجرسه، الشدة والقوة والعنف في تلك الرجفة، مما يستدعي إثارة الخوف واستيلاء الرعب علىٰ ضِعَاف الإيمان من أهل المدينة، وقد اكتسبت تلك الكلمة هذه الدلالة من بنيتها اللغوية، ومن إيحاء مخارجها وصفاتها ، أما عن الدلالة اللغوية : فأصل الرجفة : الحركة

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل مسند أنس بن مالك رضىٰ الله تعالىٰ عنه، ٣/ ١٩١، رقم(١٣٠٠٩) تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم.

(٢) صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قصة الجساسة، رقم(٢٩٤٣).

والاضطراب ، ورجف الشيء رجفا ورجوفا: خفق واضطرب اضطرابا شديدا ، ورجف القوم : تهيؤا للقتال، والرجفة: الزلزلة، والرجفان : الإسراع ، والرجفة في القرآن كل عذاب أخذ قوما، فهي رجفة، وصيحة، وصاعقة [1].

و عند الراغب: " الرجفُ: الاضطراب الشديد، يقال: رجفت الأرض والبحر ،وبحر رجاف ، قال تعالىٰ : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ [2] ، وقال : ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ [3][4] .

وواضح أن الكلمة تُلقي بظلال المشهد الأخروي علىٰ المشهد الدنيوي ، وكلاهما مما يرتبط بالساعة وأهوالها وشدائدها .

أما عن إيحاء مخارجها وأصواتها، فالكلمة تتكون من ثلاثة مقاطع صوتية ، وأول مقطع ينتهي بحرف الراء وقد زاد من حدة رعدتها سكونها (تر) وهو حرف لثوي مجهور مفخم متوسط بين الشدة والرخاوة[5] ، وهو من الأحرف التي تحدث اهتزازا عند النطق بها ، وينتج موسيقي مصدرها التكرير[6] ،ويتصف بهذه الصفة الاهتزازية التكرارية بتكرير ضربات اللسان في اللثة ضربات متتالية

---

(١) ينظر: لسان العرب : (رجف) .

(٢) سورة النازعات، الآية:٦.

(٣) سورة المزمل، جزء من الآية:١٤.

(٤) المفردات للراغب : ١٩٦ .

(٥) ينظر : علم الأصوات اللغوية ، مناف مهدي علام : ٦٧ ، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٩٨ م.

(٦) ينظر : أسرار الحروف ضمن أصول اللغة العربية ، أحمد زرقه : صـ ٩٠ ، ٩١ ، ط: دار الحصاد للنشر والتوزيع ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٩٣ م.

مستمرة [1] ، ثم يتبع هذا المقطع مقطع حرف الجيم الذي عليه أقوىٰ الحركات الإعرابية (جـُ) وهذا الحرف تجتمع فيه صفات الشدة والجهر، والإصمات والقلقة ، وهو صوت انفجاري احتكاكي يصور ارتطام الأجسام ببعضها كالأمواج المتلاطمة والزلزلة المفاجئة [2] ثم يأتي المقطع الأخير (الفاء) بضمتها ، وكأنها تحاكي رفض المدينة لضعاف الإيمان وطردهم خارج ساحتها ، فالكلمة بعموم جرسها وصفات حروفها تصور الحركة العنيفة التي تنزل بالمدينة التي تزلزلها وتُلْحِق بأهلها الاضطراب العنيف، والخوف الشديد، والرعب العميق .

وتظهر تلك المعاني أيضًا في بيانه (ﷺ) في حديث آخر : ((فيَأْتِي سِبَاخَ الْمَدِينَةِ، وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَهَا، فَتَنْتَفِضُ المدينة بِأَهْلِهَا نَفْضَةً أَوْ نَفْضَتَيْنِ))[3]، والفعل (تنتفض) يغلب علىٰ بنائه اللغوي تقطيع جرسه الصوتي وتكراره، بما يتلاءم مع مشهد انتفاضة المدينة ، والكلمة تصور في مشهد حسي هي الأخرىٰ الاضطراب الشديد ،والحركة القوية العنيفة، التي تلاحظ بصورة قوية في ختامها بالضاد الجهرية التي هي أوسع الحروف مخرجا، وأصعبها نطقا ، فهو حرف ضخم الوقع، مجهد في النطق يتصف بصفات القوة من الجهر

(١) ينظر : في البحث الصوتي عند العرب ، د/ خليل إبراهيم العطية : صـ ٦٠ ، منشورات دار الجاح، بغداد ، ١٩٨٣ م.

(٢) ينظر : دراسة الصوت اللغوي ، د/ أحمد مختار عمر : صـ٣٩٦ ، ط : عالم الكتب – القاهرة – ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م.

(٣) المصنف، لعبد الرزاق الصنعاني : ١/ ٣٧٩ ، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي ، طبع المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٣٩٠ هـ .

والاستعلاء والإطباق والإصمات إذا أدىٰ الإداء الفصيح[1] ، وما عليها من حركة الضم التي هي أقوىٰ الحركات الإعرابية .

و النَّفْضُ: مَصْدَرُ نفَضْتُ الثوبَ والشجَرَ. والنَّفَضُ: مَا وقَع مِنَ الشَّيْءِ إِذا نَفَضْتَه. والنَّفْضُ: أَن تأْخذ بِيَدِكَ شَيْئًا فتَنْفُضَه تُزَعْزِعُه وتُتَرْتِرُه ، وتَنْفُضُ التُّرَابَ عَنْهُ. والنَّفَضُ: مَا انْتَفَضَ مِنَ الشَّيْءِ. ونَفَضُ العِضاهِ: خَبَطُها. وَمَا طاحَ مِنْ حَمْلِ الشجرةِ، فَهُوَ نَفَضٌ. والنّافِضُ: حُمَّىٰ الرِّعْدَةِ، والنُّفْضةُ، بِالضَّمِّ: النُّفَضاء وَهِيَ رِعْدةُ النّافِضِ [2] ، والمهم أن الكلمة تدور في أغلب اشتقاقاتها اللغوية حول الحركة القوية العنيفة ، وكانت في سياق الحديث معبرة أدق تعبير عن الصورة المفزعة التي تلحق بالمدينة ، عند محاولة الدجال اقتحامها ، مما يشعر بقوة محاولة اقتحامه لها ، وشدة وقعها علىٰ النفوس .

وفي التعبير بالفعلين (ترجف) و (تنتفض) في صورة المضارعة استحضار لهذا الحدث الغريب المفزع مما يجسد الرعب ويهيء النفوس الصادقة في إيمانها لاستقباله بثبات وعزم وقوة يقين.

وتتضاعف معاني الشدة والهول بإسناد الفعلين إلىٰ المدينة ، وكأنها تعقل وتدرك هول الدجال وشدة خطره ، كما يجَسِّم هذا الإسناد شدة وقع نزوله عند سبخة الجرف، وهو يضرب رواقها بالقرب من المدينة ، فيؤثر ذلك تأثيرا بالغا برجفة وانتفاضة المدينة بأهلها .

كما تتضاعف بالتأكيد علىٰ تكرار الرجف ثلاثا (ثلاث رجفات) مما يصعد من معاني الهول والاضطراب، والفزع لقوة الرجف وشدته جراء تتابعه

---

(١) المختصر في أصوات اللغة العربية ، دراسة نظرية وتطبيقية ، د/ محمد حسن جبل : ١١٤ ، ١١٩ ، مكتبة الآداب ، ط ١، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.

(٢)ينظر: لسان العرب : نفض .

وتواليه ثلاث مرات، فضلا عما أفاده هذا الإيقاع الصوتي البادي من وراء هذا التكرار (ترجف – رجفات) من قوة الحركة، وتأثيرها القوي علىٰ الكافرين والمنافقين من أهل المدينة فيسارعون إلىٰ الخروج منها .

يقول ابن حجر : " ثم ترجف المدينة: أي يحصل لها زلزلة بعد أخرىٰ ، ثم ثالثة حتىٰ يخرج منها من ليس مخلصا في إيمانه ويبقىٰ بها المؤمن الخالص فلا يسلط عليه الدجال " [1].

وتقييد إرجاف المدينة بهذا القيد الواقع حالا (بأهلها) دلالة علىٰ أنهم هم المقصودون ، ليتميز الخبيث من الطيب حينئذ ، فمن كان من أهل الإيمان ثبت ولم يدخله رعب قدومه ، ومن كان غير ذلك تداعي إليه مسرعا ، يقول الطيبي : " الباء يحتمل أن تكون سببية، أي تتزلزل وتضطرب بسبب أهلها؛ لينفض إلىٰ الدجال الكافر والمنافق، وأن يكون حالًا، أي ترجف ملتبسة "[2].

وفيه أيضا دقة نبوية بالغة حتىٰ لا يشمل الإرجاف أرض المدينة كلها؛ آمنة لبقاعها الطاهرة وأماكنها المقدسة.

ثم يرتب بيان النبوة علىٰ هذا الإرجاف قوله: (فيخرج الله كل كافر ومنافق) فهؤلاء الذين يسارعون بالخروج من المدينة عند رجفها هم شرار الناس فيها حينئذ ، وكأن إرادة الله تأبي أن تقوم الساعة إلا علىٰ أطهر القلوب فيها وأكثرها ثباتا في إيمانها ، وهذا من بركة دعائه ومحبته (ﷺ) للمدينة .

---

(١)ينظر : فتح الباري لابن حجر (٤/ ٩٦).

(٢) شرح الطيبي علىٰ مشكاة المصابيح ، للطيبي ،تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز (مكة المكرمة – الرياض)،الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

والذي يلحظ في هذه الرواية – محل الدراسة – إسناد الإخراج إلىٰ اسم الجلالة (فيخرج الله) مع أنهم سيخرجون من تلقاء أنفسهم، كما صرحت بذلك روايات أخرىٰ فأسندت الإخراج إليهم، ففي رواية عند مسلم ((يَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْهَا كُلُّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ)) [1] وفي رواية عند أحمد من حديث جابر بن عبد الله :((إِذَا خَرَجَ الدَّجَّالُ عَلَىٰ كُلِّ نَقْبٍ مِنْ أَنْقَابِهَا مَلَكٌ، لَا يَدْخُلُهَا، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، رَجَفَتْ الْمَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ، لَا يَبْقَىٰ مُنَافِقٌ، وَلَا مُنَافِقَةٌ إِلَّا خَرَجَ إِلَيْهِ، وَأَكْثَرُ مَنْ يَخْرُجُ إِلَيْهِ النِّسَاءُ، وَذَلِكَ يَوْمُ التَّخْلِيصِ))[2].

وفي إسناد الإخراج إلىٰ الله (ﷻ) ما ينبئ عن غضب الله علىٰ هؤلاء الخارجين، وفيه ما يشعر بأن قدرة الله – جل جلاله – تدفعهم دفعًا للخروج؛ لأنهم ليسوا أهلا لأن يُوفِّقَهُم بالبقاء فيها حتىٰ قيام الساعة ، وفي إسناد الإخراج إليهم في الروايات الأخرىٰ ما يُشْعِر بفطرتهم المنتكسة التي تنجذب إلىٰ الخبيث والشر، وهو الدجال، فتخرج إليه .

والتعبير بلفظ العموم (كل) يؤكد نقاء المدينة فلا يجتمع الخير والشر فيها في ذلك اليوم، ولعله سمي بيوم (التخليص) لذلك كما جاء في رواية أحمد السابقة .

وفي تقديم (كافر) على (منافق) عدة أسرار بلاغية تظهر – والله أعلم – فيما يأتي :

١ – أن الدجال نفسه (كافر) كما أخبرت بذلك الأحاديث [3] ، فينجذب إليه أولا أمثاله من الكافرين ، ويكونون أول الخارجين إليه .

---

(١) صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قصة الجساسة، رقم(٢٩٤٣).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل مسند جابر بن عبد الله رضىٰ الله تعالىٰ عنه، ٣/ ٢٩٢، رقم(١٤١٤٤) تعليق شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح بطرقه وشواهده .

(٣) كما جاء في صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله (ﷺ) : ((الدجال ممسوح العين مكتوب بين عينيه كافر)) . صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، رقم(٢٩٣٣).

٢-أن وجود الكفار في المدينة مخالف للأصل، فالأصل أن لا كفر في المدينة، فكان الترقي من القليل إلىٰ الكثير، وكذلك الترقي مما هو أقل ضررا، لما هو أشد ، وهم المنافقون.

٣-أن ختم الحديث بـ (منافق) مما يتناغم مع جو الحديث، وما شاع فيه من حروف القلقلة مثل (القاف ، والجيم ، والدال) ، فكان ختم الحديث بهذا اللفظ متناغما مع معاني الاضطراب والفزع التي بدت واضحة في كل جملة من الجمل التي شكلت بناءه اللغوي .

وفي نهاية التحليل أرىٰ أن هذا الهدي النبوي وإن كان من الغيبيات التي أخبر بها النبي (ﷺ) عن حدث من أحداث آخر الزمان ، بل من أول علامات الساعة الكبرىٰ وأعظمها ؛ لأن ما بعده من علامات يكون متعاقبا ، إلا أنه يحمل نبوءة منه (ﷺ) بأن المدينة سيكون من ساكنيها في آخر الزمان فئة من أهل الكفر ، وسيكون كفرهم معلوما وصريحا ، وإلا لاكتفىٰ بيانه (ﷺ) بأن الذين يخرجون منها هم المنافقون دون هذه الفئة من البشر ، واللفظتان معا (كافر ومنافق) يراد بهما شرار الناس، كما صرَّح بذلك الحديث التالي في هذه الدراسة ، وعند خروج هؤلاء تكون المدينة أطهر بقاع الأرض وأعظمها كما أخبرت رواية أحمد من حديث جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما– قال : أشرف رسول الله (ﷺ) علىٰ فلق من أفلاق الحرة ، ونحن معه ، فقال : ((نعمت الأرض المدينة إذا خرج الدجال علىٰ كل نقب من أنقابها ملك لا يدخلها ...)) [1].

(١)مسند الإمام أحمد بن حنبل مسند جابر بن عبد الله رضىٰ الله تعالىٰ عنه، ٣/ ٢٩٢، ح(١٤١٤٤)

المقام الخامس: المدينة تنفي شرارها .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ (ﷺ) قَالَ: ((يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَدْعُو الرَّجُلُ ابْنَ عَمِّهِ وَقَرِيبَهُ: هَلُمَّ إِلَى الرَّخَاءِ، هَلُمَّ إِلَى الرَّخَاءِ، وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَخْرُجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ رَغْبَةً عَنْهَا إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ فِيهَا خَيْرًا مِنْهُ، أَلَا إِنَّ الْمَدِينَةَ كَالْكِيرِ، تُخْرِجُ الْخَبِيثَ، لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَنْفِيَ الْمَدِينَةُ شِرَارَهَا، كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ))[1] .

هذا الهدي النبوي يعد من العلامات الدالة علىٰ نبوته (ﷺ) ولا يخبر به إلا من اتصل بوحي السماء، فمقام الحديث يكشف عن أمر غيبي توقَّعه النبي (ﷺ) وهو رغبة بعض الناس في الرحيل عن المدينة؛ تطلعا إلىٰ العيش في الأمصار الإسلامية التي فتحت بعد ذلك؛ حيث توفر أسباب الخير والرغد، ومتع الدنيا وزخارفها، وما تشتهيه النفس البشرية بطبيعتها.

والغرض من الحديث بيان فضل المدينة المنورة، وخَيْرِيتِها علىٰ غيرها من البلاد، وإبراز خصوصية تتعلق بها، وهي أنها أرض طيبة لا تقبل الخبيث من الناس، فتخرج شرارها، ولا يبقىٰ فيها إلا أهل الخير والإيمان الخالص.

والحديث مكون من أربع جمل رئيسة، ومعقد المعنىٰ في الجملة الأولىٰ هو إثبات خيرية العيش في المدينة، وهذا المعنىٰ لم يجعله النبي (ﷺ) في بدء التعبير بها، بل جعله في خاتمة بنائها من خلال جملة الحال (والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون) ولكنَّ بيان النبوة وطَّأ لها هذا الوطاء الكاشف عن طبيعة بعض الناس في آخر الزمان في إعراضهم وعدم تمسكهم بتلك الخيرية جريا وراء تحصيل خيرات الأرض غير عابئين بما يفوتهم من تحصيل الأجر الأخروي ببركة البقاء في المدينة.

---

(١) صحيح مسلم كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها، رقم(١٣٨١).

وهذا التمهيد جاء في قوله (ﷺ): (يأتي علىٰ الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه وقريبه هلم إلىٰ الرخاء هلم إلىٰ الرخاء).

وهو يكشف في وضوح تام عن طبيعة هذه النفوس البشرية التي يغلب عليها الحرص علىٰ الدنيا وزخارفها المستجدة في الأمصار التي ستفتح بعد ذلك، بعيدا عن المدينة، والتعبير بالفعل (يأتي) بما فيه من الدلالة علىٰ السهولة يُشْعِر بيسر وسهولة دبيب هذا التطلع في قلوب الناس، وأن هذا مما سيدفعهم نحو الخروج من المدينة ، كما يكشف عن سهولة مجيء هذا الزمان، وأنه ليس ببعيد ، والتعبير بحرف الاستعلاء (علىٰ الناس) فيه ما يشعر باستعلاء هذا الزمان علىٰ الناس واستيلائه وسيطرته علىٰ قلوبهم ، وتنكير (زمان) فيه دلالة علىٰ أنه زمن غريب وعجيب ، يجعل الناس يتخلون عما يجعلهم يُحَصِّلُون به الثواب الأخروي ، بالبقاء في المدينة ، وتقديم هذا القيد (علىٰ الناس) علىٰ لفظ المسند إليه (زمان) ؛ لأن الغرض الأهم هو الإخبار عن حال الناس في هذا الزمان، وليس الإخبار عن الزمان ذاته .

و(أل) في الناس للعهد الذهني ، فهو لفظ عام يصدق علىٰ جميع الناس ، ولكن دلالة المقام تصرفه إلىٰ فئة معينة منهم ، وهم أهل المدينة ، ويدل علىٰ ذلك ما جاء عند أحمد من حديث جابر (رضي الله عنه) أنه سمع رسول الله (ﷺ) قال : ((لَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ الْمَدِينَةِ زَمَانٌ يَنْطَلِقُ النَّاسُ مِنهَا إِلَىٰ الْآفَاقِ، يَلْتَمِسُونَ الرَّخَاءَ، فَيَجِدُونَ رَخَاءً، ثُمَّ يَأْتُونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ إِلَىٰ الرَّخَاءِ، وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)) [1].

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل مسند جابر بن عبد الله رضىٰ الله تعالىٰ عنه، ٣/ ٣٤١، رقم(١٤٧٢١) تعليق شعيب الأرناؤوط: صحيح .

فروق ودلالات :

الذي يلاحظ في هذه الرواية أنها بدئت بأسلوب مؤكد بالقسم المحذوف، والتقدير: والله ليأتين... ، بينما خلت منه رواية الحديث –محل الدراسة– ولعلَّ مجيء التوكيد في حديث جابر فيه ما يكشف عن إخبار النبي (ﷺ) بشيء لم يتوقعه الصحابة الحاضرون، وأنه بعيد عن أذهانهم ؛ حيث معايشتهم لرسول الله(ﷺ) وأن الإيمان ما زال حيًّا غضا رطبا في قلوبهم، فلذلك احتاج الأمر إلىٰ هذا التوكيد البادي في سمت الكلام، ليزيل ما قد يستبعده الصحابةُ من مجيء هذا الزمن، ويؤكد لهم أن هناك صنفًا من الناس سيتطلع إلىٰ خيرات الأرض، راغبًا عن العيش في المدينة ،وما يدركه من الثواب العظيم بوجوده فيها ، بخلاف الحديث محل الدراسة فلم يكن المعنىٰ الأم فيه هو الإخبار عن مجيء هذا الزمن، وإنما كان إخباره (ﷺ) بمجيئه تهيئةً لمقصوده (ﷺ) من الحديث ، وهو بيان هذه الخصوصية للمدينة بأنها تنفي شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد، وأن تلك الخصوصية ستظل تلازمها حتىٰ قيام الساعة، ومن ثمَّ استطرد الحديث حتىٰ نهايته في التركيز نحو هذا المعنىٰ، تأكيدا علىٰ أنه هو مقصود الحديث ولبه ومعقد البيان فيه ، ولذلك كانت سمة التوكيد هي الغالبة علىٰ هذا الجزء من المعنىٰ، كما يكشف عنه الحديث بعد ذلك.

كما يلحظ في الحديث – محل الدراسة – أنه اقتصر علىٰ دعوة الرجل لابن عمه وأخيه قائلا : (هلم إلىٰ الرخاء ، هلم إلىٰ الرخاء) ، بينما حديث جابر أطنب في هذا المعنىٰ بقوله (ﷺ) : (ينطلق الناس فيها إلىٰ الآفاق يلتمسون الرخاء فيحذرون رخاء ، فيتحملون بأهليهم إلىٰ الرخاء) وليس هنا دعوة من الرجل لابن عمه وأخيه ، بل انطلاق ، وشدة تطلع ، وقوة حركة مما يصور حركة اندفاعهم ورغبتهم الأكيدة والشديدة في تحصيل هذا الرخاء .

ومن دقائق النظم – أيضا – في حديث جابر هذا التغاير البادي بين حروف العطف (الفاء) في قوله (ﷺ) : (يلتمسون الرخاء فيجدون رخاء ، ثم يأتون فيتحملون بأهليهم إلىٰ الرخاء) حيث دلت في الفعل (فيجدون) عن سرعة تحقق مرغوبهم في نيل هذا الرخاء وإدراكه ، وأن فتنة الابتلاء به كانت قريبةً من نفوسهم ، وباديةً أمام أعينهم ؛ حيث وجدوا رخاء كثيرا، وفيضا عظيما منه، بدلالة المغايرة بين التعريف والتنكير (يلتمسون الرخاء فيجدون رخاء) بما يوحيه تنكير (رخاء) من تعظيم، وكأنهم وجدوا رخاءً غير الذي كان في توقعهم، ثم جاء التعبير بحرف العطف (ثم يأتون ...) ليعكس معايشتهم لهذا الرخاء زمنا ، حتىٰ فاض وكثر بدلالة تنكيره ، وهذا مما دعاهم إلىٰ التفكير بالعودة ثانيا إلىٰ المدينة ، ليس حبا فيها ، بل ليحملوا أهليهم إلىٰ هذا الرخاء ليشاركوهم في جمعه وتحصيله والتمتع به .

ومن دقائق النظم – أيضا – بين الحديثين أنه (ﷺ) في الحديث – محل الدراسة – اقتصر علىٰ دعوة الرجل لابن عمه وقريبه : (يدعو الرجل ابن عمه وقريبه) ، بينما في حديث جابر جاء قوله: (فيتحملون بأهليهم إلىٰ الرخاء) فهنا توسع في الدعوة؛ حيث شملت الأهل جميعا ، والتعبير بالفعل (يتحملون) بصياغته ومادته وما فيه من تضعيف وزيادة التاء دون : (فَيَحْمِلون) فيه دلالة علىٰ طفرة الخروج والدفع القوي بهؤلاء الأهل نحو الخروج إلىٰ هذا الرخاء والعيش الرغيد.

وتتسع دائرةُ الدعوة والخروج الغفير من المدينة في حديث آخر يقول فيه (ﷺ) : ((إِنَّ رِجَالًا يَسْتَنْفِرُونَ عَشَائِرَهُمْ، يَقُولُونَ: الْخَيْرَ الْخَيْرَ، وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ))[1] فالأمر هنا ليس دعوة ، بل استنفار، وحث بليغ، ودفع قوي نحو الخروج ، والداعون ليس رجلا كما في قوله: (يدعو الرجل) بل (رجالا) ، والمدعوُّ ليس ابن عمه وقريبه ، وليس الأهل فقط ، كما في حديث جابر : (بل عشائرهم) ، وهذا يلاؤم وفرة الخير، وكثرته وشدة غزارته ، والتعبير بلفظ (عشائرهم) آنس بهذا السياق ؛ لأنه أعم وأشمل ، ففي المفردات : " والعَشِيرَةُ: أهل الرجل الذين يتكثّر بهم. أي: يصيرون له بمنزلة العدد الكامل، وذلك أنّ العَشَرَةَ هو العدد الكامل. قال تعالىٰ:﴿وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾[2] ،فصار العَشِيرَةُ اسما لكلّ جماعة من أقارب الرجل الذين يتكثّر بهم.... والعَشِيرُ: المُعَاشِرُ قريبا كان أو معارف " [3].

وقوله (ﷺ) في الحديث – محل الدراسة – علىٰ لسان الرجل الذي يدعو ابن عمه وقريبه : (هلمَّ إلىٰ الرخاء . هلم إلىٰ الرخاء) من جنس قول هؤلاء الذين يستنفرون عشائرهم بقولهم : (يقولون : الخير الخير) ، ولغة التكرار هي البادية في سمت التعبيرين ، وذلك للحث ، والمبالغة في استمالة المدعوِّ ين ومزيدِ ترغيبهم ، والإذعان لمطلوبهم، ودفعهم دفعا نحو الخروج إلىٰ تحصيل هذا الخير وذاك الرخاء .

ومعلوم أن التكرار يعمل علىٰ تقرير المعنىٰ في النفس وتأكيده في الذهن ، وهو صورة من صور الإطناب : " وفائدته العظمىٰ : التقرير ، وقد قيل : الكلام

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل مسند أبي هريرة رضىٰ الله تعالىٰ عنه، ٢/ ٤٣٩، رقم(٩٦٦٨) تعليق شعيب الأرناؤوط: صحيح وهذا إسناد حسن.

(٢) سورة التوبة، جزء من الآية:٢٤.

(٣) المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهانىٰ (ص: ٥٦٧).

إذا تكرر تقرر "[1] ، وقال السيوطي في مزهره:" من سنن العرب التكرير والإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر"[2] .

و(هلمَّ) اسم فعل أمر للحضور أو الإحضار ، ويكون متعديا ولازما ، واختلف في أصل تركيبه ، فقيل : مركب من (ها) التي للتنبيه ، وضُمَّت إليها (لم) ، ثم حذفت الألف لكثرة الاستعمال ، وهذا مذهب الخليل ، وقال غيره : الأصل : (هلْ) زيدت عليها (لم) والمقصود من هذا الاستفهام الأمر بالقصد ، كأن تقول : أقصد ، و(هلمَّ) يستوىٰ فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث عند الحجازيين ، وبنو تميم وأهل نجد يصرفونها كما يصرفون الأفعال ، وهو فعل أمر عندهم فيقولون : هلما ، وهلموا وهلمي [3].

وتتبدي صورة المجاز المرسل في الروايات المذكورة جميعها ، فالتعبير بلفظ (الرخاء) أو (الخير) كما جاء في (يقولون: الخير الخير) جاء علىٰ سبيل المجاز المرسل لعلاقة السببية ؛ حيث أطلق السبب وأريد المسبب عنه من الزراعة، والتجارة، ووفرة المال الناتج عنهما ، ولكن الداعين لأهليهم أو عشائرهم أرادوا أن يبعدوا عن المعنىٰ شائبة التعب وبذل الجهد اللازم للزراعة

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٣/ ١٠ ، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة التراث، القاهرة ، بدون .

(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، جلال الدين السيوطي : ١/ ٢٦٢ ، ت : أ/ فؤاد علىٰ منصور ، دار الكتب العلمية – بيروت – ط ١ ، ١٩٩٨ م.

(٣) ينظر : الكشاف للزمخشري : ٢/ ١٣٤ ، شرحه وضبطه وراجعه : يوسف الحمادي ، الناشر : مكتبة مصر ، بدون .

أو للتجارة ، وكأن من يدعونهم لن يجدوا إلا الرخاء والخير الذي تتطلع إليه النفوس بطبيعتها ، وهذا أدعىٰ إلىٰ تلبية مقصودهم واللحاق بهم .

ثم يبين النبي (ﷺ) خطأ هذا التوجه، وما يصيب الداعين إليه، والمستجيبين لهم من فقد الخير العظيم، وتحصيل الثواب الكثير، فيُعَقِّب علىٰ دعوة هؤلاء بجملة الحال (والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون) وفيها تبكيت وتحسير لهم بفوات تلك الخيرية: " وإنما كان البقاء بالمدينة خيرا لهم؛ لأنها حرم الرسول (ﷺ) وجواره ومهبط الوحي، ومنزل البركات، فلو كانوا يعلمون لأدركوا ما في الإقامة بها من الفوائد الدنيوية والفوائد الأخروية التي تستحقر دونها ما يجدونه من الحظوظ الفانية العاجلة بسبب الإقامة في غيرها "[1].

وهذه الجملة الحالية من بيانه (ﷺ) هي معقد المعنىٰ في مطلع هذا الهدي النبوي، وكأنه ما نطق بما قبلها إلا من أجلها ، وأن ما قبلها في الحقيقة هو وطاء وتمهيد لها، وقد احتفىٰ بيان النبوة في نظمها ، احتفاء بتلك الخيرية التي تضمنتها؛ حيث ساقها في ثوب الاسمية دلالة علىٰ ثبوت تلك الخيرية ثبوتا دائما، وأن خيرتها دائمة مهما اختلفت الأزمنة ، وتواردت السنون ، حتىٰ قيام الساعة ، ونعمت هذه الفضيلة للمدينة .

كما أضفىٰ النبي (ﷺ) علىٰ تلك الجملة نوعا آخر من التأكيد ؛ حيث قدم ذكر المتحدث عنه (المدينة) وذلك مما أضفىٰ تشويق النفس وإثارة تطلعها إلىٰ الخبر المسند إليها ، فإذا وقعت عليه بعد ذلك تمكن فيها فضل تمكن ، وفي هذا بالغ التحفيز علىٰ تحصيل الخبر وعدم فواته مهما كانت المغريات الدافعة إلىٰ غيره ، ومن هنا تبدو أيضا دقة بيان النبوة في إيراد تلك الجملة الحالية بواو الحال، لما تؤذن به تلك الواو من طبيعة المغايرة الواضحة بين مضمون ما

(١) فتح الباري : ٣/ ٩٣.

دخلت عليه وبين مضمون الجملة السابقة عليها ، وكأنها تؤذن بأن ما بعدها من واد آخر من المعنىٰ غير وادي سابقتها ، فتلك تتعلق بموفور الثواب ، وتحصيل الأجر من أجل الآخرة ، وهذه تتعلق بضد ذلك من حيث التعلق برغد الحياة ، وزهرة الدنيا التي تتجسد في تلك الأمصار التي يدعون إلىٰ الخروج إليها يقول الدكتور محمد أبو موسىٰ : " ولهذا إذا جاءت – أي الواو – مع الجملة الحالية آذنت بأن صاحب البيان يَعُدُّ المعنىٰ الذي في هذه الجملة الحالية كأنه يوشك أن يكون ندا لمعنىٰ الجملة التي تتبعها هذه الجملة الحالية " [1] .

ويقول الإمام عبد القاهر مستجليا الفرق بين مجي جملة الحال بالواو وبين عدم مجيئها : " واعلمْ أنَّ كلَّ جملةٍ وقعَتْ حالاً ثم امتنعَتْ منَ "الواو"، فذاك لأَجْل أنَّك عمَدْتَ إلىٰ الفعل الواقعِ في صدرِها فضَمَمْتَه إلىٰ الفعلِ الأَول في إثباتٍ واحدٍ، وكلُّ جملةٍ جاءتْ حالاً، ثم اقتضتْ "الواو"، فذاكَ لأنكَ مستأنِفٌ بها خَبَراً، وغيرُ قاصدٍ إلىٰ أنْ تَضُمَّها إلىٰ الفعلِ الأولِ في الإثبات" [2].

واحتفاءً بتلك الخيرية يؤثر بيان النبوة حذف المفضل عليه، وتقديره: والمدينة خير لهم من هذا الذي يدعون إليه، وكأنه لا شيء يذكر، ولا يعتد به بجانب خيرية المدينة، كما بدت لغة الحذف واضحة في تلك الجملة؛ حيث حذف جواب الشرط التي ذيلت به تلك الجملة الحالية، وذلك لدلالة جملة الحال عليه، وتقديره: لو كانوا يعلمون فالمدينة خير لهم، وفي هذا الشرط" تجهيل لهم لمفارقتهم المدينة، وتفويتهم علىٰ أنفسهم خيرا عظيما " [3] .

---

(١) شرح أحاديث من صحيح مسلم : ٣٤ .

(٢) دلائل الإعجاز : (١/ ٢١٣).

(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري : ١٦ / ١٩١ .

وهذه الجملة الحالية التي وقعت في طرف الجملة الأولىٰ في هذا الهدي النبوي، وكانت مقصد المعنىٰ وأساسه وقطبه نجدها تتكرر بنفس صيغتها بصورة لافتة في حديث آخر ، للغرض نفسه ، وهو التأكيد علىٰ حرمة المدينة، وتقرير هذا المعنىٰ وتثبيته في النفوس. فعن سفيان بن أبي زهير(ﷺ) أنه قال : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول:((تُفْتَحُ اليَمَنُ، فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ[1]، فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، وَتُفْتَحُ الشَّأْمُ، فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ، فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، وَتُفْتَحُ العِرَاقُ، فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ، فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)) [2].

ولغة التكرار لتلك الجملة هي السمة البادية علىٰ هذا الهدي النبوي الشريف تأكيدا علىٰ إثبات تلك الخيرية، وتقرير هذا المعنىٰ في النفس، فلا يغريها أي لون من الإغراءات الناجمة عن تلك الفتوحات، من ثراء العيش، ووفرة الخير، و رغد الحياة ، والحديث اشتمل علىٰ جمل ثلاث تتطابق في ألفاظها تماما دون أدنىٰ تغيير سوىٰ أسماء تلك الأمصار التي أنبأ النبي (ﷺ) عن فتحها التي ابتدأها باليمن، ثم الشام، ثم العراق، وكان من الممكن أن يسلك بيان النبوة في التعبير عن هذه الجمل الثلاث بجملة واحدة فيقول:(تفتح اليمن والشام والعراق فيأتي قوم... إلخ) ولعله (ﷺ) قصد من وراء هذا التعديد أن يُذَكِّر

---

(١) في معنىٰ قوله (ﷺ): (يُبِسُّون) أقوال متعددة لشرَّاح الحديث، وذكر الشيخ النووي أن : " الصواب أن معناه: الإخبار عمن خرج من المدينة محملا بأهله باسًّا في سيره ، مسرعا إلىٰ الرخاء في الأمصار التي أخبر النبي (ﷺ) بفتحها " شرح النووي : ٩/ ١٥٨ ، وأيده ابن حجر في ذلك المعنىٰ . ينظر : فتح الباري : ٤/ ٩٢ .

(٢)صحيح البخاري كتاب فضائل المدينة، باب من رغب عن المدينة، رقم(١٧٧٦).

بخيرية المدينة عقب كل فتح؛ حتىٰ لا يكون هناك مدخل للنفوس نحو نسيان الخيرية عقب كل فتح ، وكأنه (ﷺ) يخاطب كل جيل وكل أهل زمن تفتح فيه كل بلدة من هذه البلدان ، وقد يكون الغرض من وراء هذا التكرار بالإضافة إلىٰ معنىٰ التأكيد والتقرير الدلالة علىٰ تعدد المتعلق، يقول الشيخ الخطيب القزويني: " وقد يُكَرَّر لتعدد المتعلق، كما كرره الله -تعالىٰ - من قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [1] ؛ لأنه تعالىٰ ذكر نعمة بعد نعمة ، وعقَّب كل نعمة بهذا القول، ومعلوم أن الغرض من ذكره عقيب نعمة غير الغرض من ذكره عقيب نعمة أخرىٰ" [2]. وكأن كل فتح، وإن كان في ظاهره نعمة ، إلا أنه يحمل وراءه فتنة، وهي فتنة التطلع للخيرات والثراء الذي في تلك البلد التي فتحت، فناسب ذلك أن يذكرهم النبي (ﷺ) بخيرية المدينة ويعيدها علىٰ أسماعهم ؛ ليؤكد أنها أجل وأعظم من هذا الثراء الدنيوي الناجم عن هذا الفتح الجديد.

وأعود الىٰ الحديث محل الدراسة فأجد أول ما يلفت النظر بعد بيان بلاغة الجملة الأولىٰ منه هو انتقال أسلوب الحديث من الأسلوب الخبري الذي بنيت عليه الجملة الأولىٰ إلىٰ أسلوب الإنشاء بالقسم تحذيرا قويا من مغبة عدم الاعتداد بتلك الخيرية ؛ لهثا وراء تحصيل الخيرات المادية فيقول (ﷺ) : ((والذي نفسي بيده لا يخرج منهم أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيرًا منه)).

---

(١) سورة الرحمن:١٣ . وقد تكررت في السورة الكريمة إحدىٰ وثلاثين مرة .

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني : ٣/ ٢٠١ ، تعليق : د / محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل – بيروت – ط٣ ، بدون .

وقد فصلت هذه الجملة عن سابقتها لكمال الانقطاع؛ إذ هي إنشائية لفظا ومعنىٰ، وسابقتها خبرية لفظا ومعنىٰ .

وهذه الجملة تحمل في طياتها تجهيلا وتسفيها وعدم اعتداد بمن يرغب في الخروج من المدينة بإعلامه بأن الله (ﷻ) ببالغ قدرته سَيْستَبدل في المدينة من هو خير منه ، مما يؤذن بأنه ليس أهلا للبقاء فيها ، وقد ساق النبي (ﷺ) المعنىٰ في ثوب أسلوب القسم بتلك الصيغة اللافتة (والذي نفسي بيده) وهي من أيمانه (ﷺ) التي إذا اجتهد في اليمين أقسم بها [1] ، وهذا مما يدل علىٰ خطورة المعنىٰ المقسم عليه ، وأنه من الأمور المهمة التي ينبغي أن يستشرف لها وعي السامع ، ويتلقاها باهتمام بالغ ، وقد بنىٰ النبي (ﷺ) جملة القسم هذه علىٰ الإيجاز بالحذف ؛ حيث حذف فعل القسم ، اكتفاء بحرف القسم ، كما حذف المقسم به – الله – اكتفاء بصيغته (والذي نفسي بيده) والتقدير : أقسم والله الذي نفسي بيده ، وهذا الحذف فيه تصفية للعبارة بحذف ما هو معلوم لدىٰ كل نفس ، فالقرينة الدالة علىٰ حذف المقسم به واضحة جليلة؛ إذ لا تنصرف النفس عند قسمه (ﷺ) بتلك الصيغة إلا لله (ﷻ)، فهي لا تدل إلا عليه –سبحانه– يضاف إلىٰ ذلك: أن تلك الصيغة تعد من خصائصه (ﷺ) التي اختص بها في أسلوب القسم ، وهذا ما ذهب إليه أحد الدارسين ؛ إذ يقول : " القسم بالتعبيرين (والذي نفسي بيده) و (والذي نفس محمد بيده) خاص بالحديث الشريف ، فلم أر ، أو أقرأ فيما طالعت من نصوص قبل الحديث من استخدام هذه الصيغة ... إلا ما ورد علىٰ ألسنة بعض الصحابة مثل أبي هريرة ، وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) وذلك لتأثرهما المباشر بأسلوب النبي (ﷺ) ، أما بعد هذا العهد ، فلعل هذا الأسلوب أيضا لم يرد ، ليظل أسلوبا منفردا في الحديث الشريف " [2].

---

(١) ينظر : فتح الباري : ١١/ ٧٣٣ .

(٢) بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين ، د / عودة خليل عودة : ٦٦٢ ، دار البشير – الأردن – ط الثانية ، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م.

وجملة القسم هذه تكشف عن شدة إذعانه (ﷺ) لله ، وتفويض الأمر وتسليمه إليه ؛ لأنه هو خالقه ومدبر أمره وفق إرادته ومشيئته ، فالمعنىٰ كما يقول ابن حجر : " أَنَّ أَمْرَ نُفُوسِ الْعِبَادِ بِيَدِ اللهِ ، أَيْ: بتقديره وتدبيره "[1].

وقد أشار فضيلة الدكتور/ محمد أبو موسىٰ إلىٰ " أن القسم في هذه الجملة قسم بالذي نفسه بيده ، وهو قسم يستحضر الموت ، وما بعد الموت وانقطاع العمل ، وفوات الفرصة ، ومواجهة ما لا سبيل إلىٰ التخلص منه ، ولذلك – غالبا – ما يقع بعد هذا النوع من القسم معنىٰ يتعلق بالآخرة وبالأمر المحذور المخوف " [2].

وكأن النبي (ﷺ) بإيثاره القسم بتلك الصيغة في هذا السياق يريد أن يستحضر صورة الموت أمامهم ، وفوات فرصة الموت في أرض المدينة المباركة[3] ، وفوات تحصيل الثواب والأجر ببقائهم فيها ، وهو ما ينفعهم بعد الموت ، وهو الباقي في ميزان أعمالهم يوم القيامة .

ثم تأتي جملة القسم (لا يخرج منهم أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيرا منه) والسمة البلاغية البادية في بناء جملة القسم هذه هي أسلوب القصر ، وهو " من الأشكال التعبيرية الموجزة التي تحمل معان غزيرة ؛ وذلك لأنه تأكيد فوق

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٢/ ١٢٩)

(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري : ٧٥٤ ، ٧٥٥ .

(٣) حث النبي (ﷺ) علىٰ الموت بالمدينة ، فعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – أن النبي (ﷺ) قال : ((من استطاع أن يموت بالمدينة فليفعل فإني أشفع لمن مات بها)) . مسند الإمام أحمد بن حنبل مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب رضىٰ الله تعالىٰ عنهما، ٢/ ١٠٤، رقم(٥٨١٨) تعليق شعيب الأرناؤوط: صحيح.

تأكيد ، فهو يضغط جملتين في جملة واحدة في تركيز شديد ، ولهذا كان وجوده في الكلام دليلا علىٰ كثرة دلالته وكثافة معانيه "[1]، وتتضاعف دلالات التوكيد في اختياره (ﷺ) لطريق النفي والاستثناء في بنائها ، وهذا الطريق : " يكون غالبا في المقامات العنيفة ذات الإيقاع العالي، والنبرة الجهيرة ، والجرس القوي " [2] ، وقد جاء التعبير به متناغما مع مقصده (ﷺ) في هذه الجملة؛ حيث قصر خروج أي أحد من أهل المدينة راغبا عنها علىٰ إخلاف الله فيها من هو خير منه ، قصر موصوف علىٰ صفة قصرا حقيقيا تحقيقيا ، وفي هذا القصر تجهيل واضح ، وتنديد قوي بهذا الخارج ، وتأكيد بالغ علىٰ فقده للخيرية، وأنه فقد حظا عظيما من الأجر والثواب ببركة وجوده في هذا المكان ، وأن غيره ممن يستحق تلك الخيرية هو الذي سيسُوقُه الله إلىٰ هذا المكان، ويهيئ له أسباب الوجود في هذه البقعة المباركة عن طريق الإخلاف ، قال الباجي : " بمولود يولد فيها ، أو ينتقل إليها من غيرها " [3].

وتتبدي في تلك الجملة دقة بيانه (ﷺ) في نظمها ، فتصديرها بالنفي مما يثير النفس، ويزيد شوقها وتطلعها إلىٰ معرفة المنفي والكشف عن أسبابه ، والبحث في مضمون المعنىٰ الذي سيق من أجله ، وتسليط حرف النفي (لا) بما فيه من مد متطاول بحرف الألف علي الفعل المضارع(يخرج) مما يخلص هذا الفعل للاستقبال ، ويعطي الحكم معنىٰ العموم ، وأنه ممتد بامتداد الزمان، خصوصيةً منفردةً للمدينة ، وتقديمُ المتعلق (منهم) علىٰ لفظ المسند إليه (أحد) فيه

---

(١) نظرات في أسلوب الإنشاء والقصر ، د/ محمد عبد الحليم شادي : صـ ١٠٥ ، مطبعة التركي – طنطا – ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م .

(٢) أساليب القصر في القرآن الكريم ، د/ صباح دراز : ١٦٦ .

(٣)مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٥١٤).

تخصيصُ هذا الحكم وقصرٌ له علىٰ أهل المدينة ، هذا فضلا عما أضفاه هذا التقديم من توكيد التغليظ والرفض الشديد منه (ﷺ)لهذا الخروج ، وتنكير (أحد) يضفي معنىٰ العموم والشمول ، وأنه (ﷺ) لا يستثني من هذا الحكم أحدا ، وكأنه (ﷺ) يُلْفِتُ كل نفس وينبهُها إلىٰ خطورة ما قَدْ تُقْدِم عليه من ترك المدينة؛ رغبةً عنها، والتطلع إلىٰ العيش في غيرها ، وقوله (ﷺ) : (رغبة عنها) احتراس بليغ منه (ﷺ)وتتميم للمعنىٰ، وتحديد للمراد ، يكشف عن سعة رحمته، ويسر شريعته؛ حيث يفتح الباب أمام من يرغب من أهلها في الخروج من أجل أمور مشروعة ، لا غنىٰ له عنها كتحصيل العلم ، والجهاد ، والتجارة المشروعة وغير ذلك ، المهم أن تكون نية الخروج عدم الكراهية للعيش فيها ، وهذا مفاد من التعبير بحرف المجاوزة (عنها) ؛ إذ " يقال : رغبت في الشيء: أحببته ، ورغبت عنه كرهته " [1] .فهذا القيد به يتحدد المعنىٰ ، ويُنْفَي عنه صفةُ العموم ، وذلك لأن الصحابة الذين خرجوا من المدينة لم يخرجوا منها رغبة عنها ، وإنما خرجوا لمقاصد صحيحة كنشر العلم، وفتح بلاد الشرك ، والمرابطة في الثغور ، وهم مع ذلك علىٰ اعتقاد بفضل المدينة وفضل مكانها[2].

والتعبير بالفعل(أخلف) وإسناده إلىٰ الله (ﷻ) دون (أوجد) مثلا ، أو (أبدل الله فيها)، أو غير ذلك من البدائل اللغوية، مما يضفي علىٰ هذا الإخلاف التعظيم والتفخيم؛ لأن الذي سيتولاه هو الله –سبحانه– ، وفيه إيحاءٌ بيِّن بمزيد التعويض، وكثرة البركة بهذا المخلَف، ولذلك " قد قضىٰ الله تعالىٰ بأن مكة

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم : ١١/ ٢٩ .

(٢) ينظر : فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٢٠٠).

والمدينة لا يخلوان من أهل العلم والفضل والدين إلىٰ أن يرث الله ومن عليها، فهم الخلف ممن خرج عنها" [1].

كما تبدو دقة بيانه(ﷺ) في ترتيب تلك القيود الثلاثة في جملة (إلا أخلف الله فيها خيرا منه) فتقديم القيد (فيها) ؛ لأن المدينة محور الكلام ، ومحط الاهتمام بالإخبار عنها ، ومحل التعظيم والحث والترغيب علىٰ البقاء فيها ، ثم جاء القيد الثاني (خيرا) للإشعار بأن الخير مرتبط بها ، ومتعلق برحابها ، والتعبير به منكرا؛ مبالغة في تفخيمه وتعظيمه ؛ إذ تتكاثف من خلاله ظلال الخيرية وتتعدد جوانبها ، وفي نهاية تلك الجملة من بيانه (ﷺ) يأتي هذا القيد الأخير (منه) وكأنه لما رغب عن البقاء في المدينة أبت فطرةُ لغة لسانه (ﷺ) إلا أن يؤخر في النظم ، وهذا الترتيب الدقيق لتلك القيود يتفق مع سنن العرب في كلامهم بأنهم" يقدمون الذي بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعني ، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم" [2] .

وبعد أسلوب القسم السابق يعود النبي (ﷺ) إلىٰ لغة الأسلوب الخبري فيقول: " ألا إن المدينة كالكير تخرج الخبيث) بتلك الصيغة اللافتة التي تتصاعد من خلالها معاني التحذير والرفض للرغبة عن المدينة والانتقال إلىٰ غيرها ، وهذه الجملة من بيانه (ﷺ) كان من الممكن أن يسلك في بنائها مسلكا آخر فيأتي بها في صورة التعليل لسابقتها فيكون بناء الكلام: لا يخرج منهم أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيرا منه فإن المدينة كالكير... ولكنه (ﷺ) بنىٰ كلامه في تلك الجملة علىٰ القطع والاستئناف لإشباع هذا الجزء من المعنىٰ والاحتشاد له ، وذلك لما له مزيد عناية بالغرض المسوق له الكلام ، وهو إبراز خيرية المدينة في صورة محسة كاشفة عن طبيعتها ؛

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم : ١١/ ٢٩ .

(٢) دلائل الإعجاز : ١٠٧ .

حيث لا تقبل إلا العناصر الإنسانية الطيبة المفعمة بالإيمان، وترفض الخبيث منها ، وتلاؤما مع احتشاده (ﷺ) لهذا الجزء من المعنىٰ استفتح هذا المقطع بتلك اللفظة ذات الدلالة الحية، واللافتة، والمثيرة (ألا) " وهي لا تقع في الكلام الفصيح إلا مقدمة لأمر ذي بال يهيئ بها نفس متلقيها ، ويحضرها ، ويستفتح بها نوافذ الحس ، ويوقظ بها غوافي الإدراك "[1].

وهي في أصلها مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفي (لا) لإعطاء معنىٰ التنبيه علىٰ تحقيق ما بعدها[2]، ويزيد النبي (ﷺ) بيانه توكيدا، وإثارة، ولفتا، وتنبيها، فيولي حرف الاستفتاح بحرف التوكيد(إن) التي هي أم أدوات التوكيد، مما يشير إلىٰ أهمية الخبر الذي سيلقيه وخطورته ، ومن هنا أراد النبي (ﷺ) أن يثبته في وعي كل سامع، ويرسخه في ذهن كل متلق لبيانه ، وبخاصة من تتطلع نفسه من أهل المدينة إلىٰ ما استُجِدَّ مِنْ وفرة أسباب الحياة، ورغد ظروفها في البلاد الأخرىٰ، فيقلع عما تتطلع إليه ويعزم علىٰ البقاء في المدينة ، ليحظىٰ بالثواب الجزيل ببركة البقاء فيها ، ومن هنا آثر بيانه (ﷺ) أن يذكرها صراحة في النظم ، وعدل عن الضمير العائد عليها : ألا إنها كالكير؛ رغبة في استحضارها بلفظها ، اهتماما بالمعنىٰ الذي يتعلق بها ، وتوضيحا له وتوكيدا، وتقريرا له في النفوس ، وذلك لأن " قدرا كبيرا من التأثير يظل الاسم الظاهر محتفظا به، ولا يستطيع الضمير حمله نيابة عنه ؛ لأنها تتولد حين يقرع اللفظُ السمعَ بجرسه ،

---

(١) الإعجاز البلاغي ، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم ، د / محمد أبو موسىٰ : صـ ٢٩٣ ، مكتبة وهبة – ط ٢ ، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م.

(٢) ينظر : البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن للزملكاني : ٩٤ ، ت : د/ خديجة الحديثي ، د/ أحمد مطلوب ، مطبعة العاني ، بغداد ، ط ١ ، ١٣٩٤ هـ – ١٩٧٤ م .

وارتباطاته المختلفة جد الاختلاف ، والتي اكتسبها في قصته الطويلة مع الكلمات والأحداث والمواقف "[1].

ويزيد النبي(ﷺ) هذا المعنىٰ بيانا وتوضيحا فيقول: (المدينة كالكير) بتلك الصورة التشبيهية الحسية الطرفين التي هي من معالم بيئتهم التي يعيشون فيها، والتي هي قريبة من عقولهم ، ولا تبعد صورتها عن وعيهم ، ووجه الشبه بين طرفي التشبيه : إخراج الخبيث الضار وبقاء ما هو نافع وصالح في كل ، وإنما شبهها النبي (ﷺ) بالكير ؛" لأن الكيرَ لشدَّة نفخه ينفي عن النار السخام والدخان والرَّماد، حتىٰ لا يبقىٰ إلا خالصُ الجمر والنار، هذا إن أراد بالكير المنفخ الذي تُنفَخُ به النار، وإن أراد به الموضع المشتمل علىٰ النار وهو المعروف عند أهل اللغة، فيكون معناه أن ذلك الموضع لشدَّة حرارته ينزعُ خبث الحديد والذهب والفضة، ويُخْرِج خلاصة ذلك، والمدينة كذلك لما فيها من شدة العيش وضيق الحال تخلِّصُ النفس من شهواتها وشرهها وميلها إلىٰ اللذات المستحسنات، فتتزكىٰ النفس عن أدرانها وتبقىٰ خلاصتُها، فيظهر سرُّ جوهرها وتعم بركاتها"[2].

وقد أضفت هذه الصورة التشبيهية علىٰ المعنىٰ المقصود الوضوح والبيان، وأبانت عن طبيعة المدينة ذاتها، وأنها لا تقبل إلا العناصر الطيبة، والنماذج الإيمانية الحية ، والصورة فيها – أيضا – إضفاء التنفير والتقبيح لتلك العناصر التي ترغب عن المدينة ؛ لأنها أشبه بالأدخنة والعوادم الضارة ، التي تبعث السموم في أرجائها ، ومن هنا كان من طبيعة المكان ذاته عدم تقبله لمثل هؤلاء، وقد تأتيَّ ذلك من عدول إسناد الإخراج إلىٰ الخبيث ذاته فيقال : ألا إن المدينة

---

(١) خصائص التراكيب ، د / محمد أبو موسىٰ : ٢٤٨ ، مكتبة وهبه ، ط ٦ ، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م .

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣/ ٤٩٧).

كالكير يُخرج الخبيث ، ولكنه (ﷺ) عدل عن ذلك الإسناد، وأسند الإخراج إلىٰ المدينة في جملة (يُخرج الخبيث)، وذلك علىٰ سبيل المجاز العقلي لعلاقة المكانية ، وفيه إشعار بطيب أرض المدينة بطبيعتها ، وأنها بذاتها تلفُظُ من لا يستحق أهلية البقاء فيها ، وجملة (تخرج الخبيث)، حال من المدينة ، وهي قيد كاشف عن وجه الشبه ، وفيه تحديد للمعنىٰ ، وتوضيح للمراد من وراء هذا التشبيه ، وفيها استحضار لتلك الصورة البشعة في إخراج الخبيث من أهل المدينة ، وفي صياغتها بثوب المضارعة دلالة علىٰ تجدد هذا الشأن ودوامه للمدينة ، وأن هذه الخصوصية باقية لها إلىٰ يوم القيامة .

ولفظة (الخبيث) ناطقة بالتنفير والتقبيح والذم لهذا الصنف الذي يرغب عن المدينة، وكاشفة عن طبيعة نفوسهم، وما يحملونه من شر وفساد وسوء، ومن هنا جاء بيان النبوة معرفا بأل التي للجنس، وكأنهم جنس منفرد بذاته له خصائصه الكاشفة والمميزة له عن غيره، يقول الراغب : "الخُبْثُ والخَبِيثُ: ما يكره رداءة وخساسة، محسوسا كان أو معقولا، وأصله الرّديءُ الدِّخْلَةِ الجاري مجرىٰ خَبَثِ الحديد،... وذلك يتناول الباطل في الاعتقاد، والكذب في المقال، والقبيح في الفعال" [1].

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٧٢) بتصرف .

موازنة وفروق :

وهذه الصورة التشبيهية يلاحظ أنه تتكرر في بيانه (ﷺ) ويختلف بناء نظمها من حيث درجة التأكيد وعدمه بحسب السياق والمقام، ففي رواية: يقول (ﷺ): ((أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ القُرَىٰ، يَقُولُونَ يَثْرِبُ، وَهِيَ المَدِينَةُ، **تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ**)) (١).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَايَعَ رَسُولَ اللهِ (ﷺ) عَلَىٰ الإِسْلاَمِ، فَأَصَابَ الأَعْرَابِيَّ وَعْكٌ بِالْمَدِينَةِ، فَأَتَىٰ الأَعْرَابِيُّ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ (ﷺ) ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَقِلْنِي بَيْعَتِي، فَأَبَىٰ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) ، ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ: أَقِلْنِي بَيْعَتِي، فَأَبَىٰ، ثُمَّ جَاءَهُ فَقَالَ: أَقِلْنِي بَيْعَتِي، فَأَبَىٰ، فَخَرَجَ الأَعْرَابِيُّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ): ((**إِنَّمَا المَدِينَةُ كَالكِيرِ، تَنْفِي خَبَثَهَا، وَيَنْصَعُ طِيبُهَا**)) (٢).

وفي حديث آخر عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ(رضي الله عنه): رَجَعَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ (ﷺ) مِنْ أُحُدٍ، وَكَانَ النَّاسُ فِيهِمْ فِرْقَتَيْنِ: فَرِيقٌ يَقُولُ: اقْتُلْهُمْ، وَفَرِيقٌ يَقُولُ: لاَ، فَنَزَلَتْ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ (٣) **وَقَالَ**: ((**إِنَّهَا طَيْبَةُ تَنْفِي الخَبَثَ كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الفِضَّةِ**)) (٤) .

وأول ما يلفت النظر في هذه الأحاديث الثلاثة أنها في شأن المنافقين صراحة، أو ضعاف الإيمان كهذا الرجل الذي أَصَرَّ علىٰ الخروج من المدينة برغم إصراره (ﷺ) علىٰ عدم نقض البيعة له، حرصا عليه ، ولكنه في النهاية أبي

---

(١)صحيح البخاري (٣/ ٢١)

(٢)صحيح مسلم كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها، رقم(١٣٨٣)

(٣) سورة النساء، جزء من الآية :٨٨.

(٤)صحيح البخاري كتاب التفسير، باب ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ ، ح(٤٣١٣).

البقاء وخرج ناكثا لتلك البيعة، وتلك مخالفة صريحة لأمر رسول الله (ﷺ) وهذا الفعل لا يخرُجُ عن طبيعة المنافقين في مخالفتهم لرسول الله (ﷺ)، والصورة التشبيهية الأولىٰ (تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد) وردت في سياق إخباره (ﷺ) بما أمره به ربه من سكنىٰ قرية تأكل القرىٰ[1]، يقصد سكنىٰ المدينة، وهذه القرية يسميها المنافقون (يثرب) ويكشف النبي (ﷺ) عن كراهيته لذلك الاسم[2]، وأنه يسميها (المدينة)، هكذا بهذا اللفظ(المدينة) الذي آثره البيان

---

(١) تأكل القرىٰ : أي ينصر الله الإسلام بأهل المدينة ، ويفتح علىٰ أيديهم القرىٰ ، فتجلب الغنائم إلىٰ المدينة ويأكلها أهلها ، وأضاف الأكل إلىٰ المدينة والمراد : أهلها ، ينظر : غريب الحديث للخطابي : ١/ ٢٣٤ ، ت : عبد الكريم إبراهيم العزباوي ، نشر مركز البحث العلمي ، جامعة أم القرىٰ بمكة المكرمة ١٤٠٢ هـ .

وينظر : شرح السنة لأبي محمد البغوي : ٧/ ٣٢٠ ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، زهير الشاويش – طبع المكتب الإسلامي – ط ١ ، ١٤٠٠ هـ – وهذا التوجيه علىٰ اعتبار المجاز المرسل لعلاقة المحلية ، حيث أطلق المحل (القري) والمراد الغنائم الحالة فيها ، وقيل المعنىٰ :أن انتشار الإسلام سيكون ابتداؤه من المدينة، ثم يغلب علىٰ سائر القرىٰ، ويعلو علىٰ سائر الملك فكأنها أتت عليه . ينظر :مشكل الآثار للطحاوي : ٢/ ٣٣٤ – طبع مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند –١٣٣٣ هـ. وعلىٰ كلا التوجيهين: يكون في التعبير بـ (قرية تأكل القري) استعارة مكنية في لفظ (قرية) .

(٢) وإنما كره النبي (ﷺ) تسميتها بذلك الاسم ؛ لأنه من التثريب الذي هو التوبيخ والملامة ، أو من الثرب – بالتحريك – وهو الفساد وكلاهما مستقبح ، وكان (ﷺ) يجب الاسم الحسن ، ويغير الاسم القبح إلىٰ الاسم الحسن ، ينظر : سبل الهدي والرشاد في سيرة خير العباد: ٣/ ٤٢٧ ، وينظر : شرح النووي علىٰ مسلم : ٩/ ١٥٤ .

القرآني في التعبير عنها ، فسياق الحديث كما هو واضح إخبار من النبي (ﷺ) لأناس خاليين الذهن من مضمون ما يخبر به؛ لأنه يعلمهم بأشياء جديدة لأول مرة فناسب ذلك أن تساق تلك الصورة التشبيهية خالية من ألوان التوكيد، وبتلك اللغة الهادئة التي غلبت علىٰ طبيعة الحديث كله تلاؤما مع حال السامعين ومراعاة للسياق والمقام؛ إذ ليس في حاجة إلىٰ التوكيد، ومن هنا عبَّر النبي(ﷺ) بلفظ الناس في قوله: (تنفي الناس) بينما عبَّر بـ (تنفي خبثها)، وبقوله: (تنفي الخبث) في الحديثين الأخيرين.

أما حديث جابر فقد جاءت فيه تلك الصورة التشبيهية (إنَّما المَدِينَةُ كَالكِيرِ، تَنْفِي خَبَثَهَا، ويَنْصَعُ طِيبُهَا) معقبا بها النبي (ﷺ) علىٰ حال هذا الأعرابي الذي يُصِرُّ علىٰ نقض ما بايع عليه رسول الله (ﷺ) ويتردد علىٰ رسول الله (ﷺ) ثلاث مرات يطلب نقض بيعته، ولكن النبي الرؤوف يُصِرُّ هو الآخر علىٰ رفض ذلك، حرصا عليه وعلىٰ إسلامه، ولكنه في النهاية يخرج غير عابئ بحرص رسول الله (ﷺ) عليه ،في ظل هذا السياق كان من المناسب أن تصاغ تلك الجملة التشبيهية في ثوب القصر بـ (إنما) بتلك العبارة الدقيقة المحددة، والواضحة والحاسمة، قصرًا للمدينة علىٰ كونها كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها .

ولسائل أن يسأل: معلوم أن (إنمّا) أداة هادئة رقيقة ناعمة ، وفي ظل إصرار هذا الأعرابي علىٰ نقض بيعته من رسول الله (ﷺ) كان المقام يقتضي أن يعبَّر بالنفي والاستثناء؛ حيث النبرة العالية، واللغة القوية، فكيف آثر بيانه (ﷺ) (إنمّا) دون القصر بـ (ما) و(إلا) ؟

وإجابة علىٰ ذلك أقول: إن تعبيره (ﷺ) بتلك الأداة في غاية الملاءمة للمقام، ففوق ما أفادته(إنمّا) من تأكيد المعنىٰ وتقريره، أفادت معنىً زائدا علىٰ دلالتها علىٰ القصر ، وهو التعريض بفساد مسلك هذا الرجل حين أصرَّ علىٰ مطلبه، ولم

يستجب لرسول (ﷺ)، مفوِّتا علىٰ نفسه فرصة العيش في المدينة ،وما يتعلق بذلك من تحصيل الأجر الكثير، والثواب العظيم ،ولذلك لا نلمح في هذه العبارة ذكرَ شيءٍ صريحٍ يتعلق بهذا الرجل ، بل كانت تعريضا به وبأمثاله ممن لا يأنسون بالبقاء في المدينة، ولا تستقيم لهم حياة فيها ، ومعلوم أن التعريض من أحسن مواقع (إنمّا) وقد بيَّن الإمام عبد القاهر(¬) القيمة البلاغية لهذا اللون من التعبير فقال: " ثم اعلمْ أَنك إِذا استقريْتَ وجدْتَها أقوىٰ ما تكونُ وأعْلَقَ ما ترىٰ بالقلب، إِذا كان لا يُراد بالكلامِ بعدَها نفْسُ معناه، ولكنَّ التعريضَ بأمرٍ هو مُقْتضاه، نحوُ أنَّا نعلمُ أَنْ ليس الغَرضُ مِن قولِه تعالىٰ:﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[1] ، أنْ يَعلَم السَّامِعُون ظاهرَ معناه، ولكنْ أن يُذَمَّ الكفَّارُ، وأنْ يُقالَ إِنهم مِنْ فرطِ العِنادِ ومِنْ غلبةِ الهوىٰ عليهم، في حُكْم مَنْ ليس بذي عقْلٍ، وإِنكم إنْ طمِعْتُم منهم في أنْ يَنْظروا ويَتذكَّروا، كنتُم كمَنْ طمِعَ في ذلك مِنْ غيرِ أُولي الألباب" [2].

أما الحديث الآخر الذي جاءت فيه الصورة التشبيهية بهذا النظم (إنها طيبة تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة) هذه الصورة جاءت تعقيبا منه (ﷺ) علىٰ حال الصحابة عندما انقسموا إلىٰ فئتين في حال المنافقين الذين رجعوا من غزوة أحد، ولم يواصلوا المسير معه (ﷺ) حتىٰ ساحة القتال ، ولقاء العدو، ففريق منهم رأىٰ قتلهم عقابا لهم، وفريق آخر التمس العذر لهم ، ولم يوافق علىٰ ذلك ، وحينئذ قال النبي (ﷺ) معقبا : (إنها طيبة تنفي الخبث ... الحديث).

---

(١) سورة الرعد:١٩، وسورة الزمر: ٩.

(٢)دلائل الإعجاز : (١/ ٣٥٤).

ولغة التأكيد في بيانه (ﷺ) بادية، ولكنّ وسيلته تختلف عن الحديث محل الدراسة حيث جاء بالقصر عن طريق النفي والاستثناء، وكذلك تختلف عن حديث الأعرابي الذي عرَّض النبي (ﷺ) بحاله، وكانت وسيلة تعريضه التعبير بـ (إنما)، ولكن التأكيد هنا جاء بلفتة لغوية منه (ﷺ) ؛ حيث عبَّر بضمير الشأن والقصة ،وذلك في قوله (إنها طيبة تنفي الخبث...) مما شكل مطلعًا قويًا، واستفتاحًا ملفتًا للصحابة، ومثيرا لانتباههم أن طبيعة المدينة أنها أرض طيبة، لا تقبل هؤلاء، وأنها ستلفظهم حتما ، فلا داعي للاختلاف حول شأنهم، ومن ثمَّ فالمقام في الحديث لا يحتاج إلىٰ توكيد بأسلوب القصر بقدر ما يحتاج إلىٰ لفت الأذهان، وإثارة الانتباه إلىٰ طبيعة المدينة ذاتها ، وهذا ما أداه التعبير بضمير الشأن علىٰ أكمل وجه "والمتكلم المبين حين يأتي بضمير الشأن كأنه يطرق في أذن السامع طرقة تنبيه ،ويقول : انتبه؛ لأنه سيأتيك من الكلام ما يجب الحفاوة به" (١).

وفي ظل هذا السياق كان تعبيره (ﷺ) بلفظ (طَيْبَةُ) هو الأنسب والآنس؛ إذ هي من الطيب، وهذا يخالف ما عُهِد عن هؤلاء المنافقين من الخبث، واللؤم ، والغدر، والخيانة ، وتلاؤما مع التعبير بهذا اللفظ الجميل الذي يشعُّ أصلُ اشتقاقه اللغوي (طيب) بالراحة الذكية التي تريح النفوس، والتي تنشر عبقها الفوَّاح في الأجواء، يعدل بيان النبوة عن التعبير في الصورة التشبيهية عن لفظ (الكير) إلىٰ لفظ (النار) تلاؤما بديعا، وتناسبا فريدا، وتناسقا عجيبا، بين الألفاظ في السياق، وتناغما مع عدوله (ﷺ) عن التعبير بلفظ (الكير) إلىٰ لفظ (النار) يعدل كذلك عن التعبير بلفظ (الحديد) إلىٰ لفظ (الفضة)، إذ الحديد يناسبه الكير، والنار يناسبها الفضة.

---

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري : ٣٧٩ .

وبالعودة إلىٰ الحديث محل الدراسة تطالعنا جملة (لا تقوم الساعة حتىٰ تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد) وهذه هي الجملة الرابعة والأخيرة التي تكوَّن منها بناء الحديث، وأول ما يلاحظ فيها أنها تتعلق ببيان حال المدينة وقت قيام الساعة، وهذا المعنىٰ لم يوجد في الأحاديث السابقة؛ حيث اكتفت جميعُها بالصورة التشبيهية، أي: تشبيه المدينة بالكير، مع الاختلاف في نظم كل صورة بحسب سياقها ومقامها، ولعل السر في تطرقه(ﷺ) إلىٰ هذا المعنىٰ الذي انفرد به هذا الحديث أن السياق فيه مختلف ، فقد بدأت جملتُه الأولىٰ بإخباره (ﷺ) عمَّا سيطرأ علىٰ بعض أهل المدينة ، وما سيكون منهم نحو التطلع إلىٰ الخيرات التي ستظهر في الأمصار الإسلامية التي ستفتح، وهذا يعني أن دبيب حب الدنيا والتعلق بها قد يسيطر عليهم، وينسيهم الآخرة وما تتطلبه من تحصيل الثواب بالبقاء في المدينة، ومن هنا اقتضىٰ المقام أن يُعرِّج بيانُه (ﷺ) إلىٰ الحديث عن حال المدينة وقت قيام الساعة، بما يدفعهم إلىٰ مزيد من الحرص علىٰ تعلق قلوبهم بها، وذلك تبشيرًا وحثًا وترغيبًا علىٰ البقاء فيها، وزجرًا وتبكيتًا لمن يرغب عنها.

كما يلاحظ أن هذه الجملة من بيانه (ﷺ) جاءت مفصولة عن سابقتها، وقد يبدو للوهلة الأولىٰ أن هذا الفصل لكمال الاتصال؛ لأنها بمنزلة التوكيد المعنوي لها ؛حيث اشتملت علىٰ نفس معناها، ولكن بالتدقيق والتمعن في السياق نرىٰ أن الأولىٰ أن يُحمْلَ هذا الفصل علىٰ الاستئناف، فهي استئناف بعد الاستئناف السابق عليها بجملة: (ألا إن المدينة كالكير...) وهذا يتفق مع طبيعة المعاني إذا حمت واشتدت في نفس

المخبر بها، يقول د/ محمد أبو موسىٰ : "وترىٰ المعاني إذا حمت واشتدت وداخلها شيء من التوتر يداخلها القطع والاستئناف حتىٰ إنك لترىٰ استئنافا يعقبه استئناف" (١).

ومما يُقَوِّي حملها علىٰ الاستئناف، وليس الفصل لكمال الاتصال، أنها أضافت معنىٰ جديدا لم يذكر في سابقتها؛ حيث جعل قيام الساعة مُعلَّقا علىٰ نفي المدينة لشرارها، وهذا المعنىٰ لم يكن في سابقتها، وهذه خصوصية جديدة للمدينة، أراد النبي (ﷺ) أن يذكرها مستقلة بجملة جديدة، تأكيدا لمعناها، وإبرازا لفضيلة جديدة تتعلق بالمدينة، وهي أن الساعة لا تقوم إلا علىٰ خيار الناس والصالحين بها، وَأَكْرِم بهؤلاء منزلة وتشريفا، وهذا بلا شك فيه مزيد حث منه (ﷺ) علىٰ تعلق القلوب بها، وتنفير لمن يرغب عنها، وذلك لعدم حرصه علىٰ تلك المنقبة الجليلة، وهي قيام الساعة، وهو علىٰ أرضها، حريصا علىٰ البقاء بها وبخاصة أن الساعة أمر غيبي لا يعلم وقتها إلا الله – سبحانه – .

والسمة البلاغية البادية علىٰ بناء تلك الجملة هي اشتمالها علىٰ نفس الصورة التشبيهية الواقعة في الجملة السابقة عليها ، وإن اختلف نظمُ بنائها عنها؛ وذلك لاختلاف السياق والمقام، ففي الجملة السابقة يشبه النبي (ﷺ) المدينة بالكير فيقول: (ألا إن المدينة كالكير تخرج الخبيث)، وفي هذه يقول:(لا تقوم الساعة حتىٰ تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد)، والتشبيه في الصورة الأولىٰ غير مقيد بزمن معين، بل فيها تشبيه المدينة بالكير علىٰ الإطلاق دون تقييد، ولذا ناسبها أن تصاغ في ثوب الاسمية؛ لإفادة معنىٰ الثبوت والدوام لتلك الخصوصية للمدينة في كل زمن، فهذا شأنها دائما وأبدا.

بخلاف الصورة التشبيهية الثانية فهي معلَّقةٌ بظرف معين ، وهو قيام الساعة، وهي أمر مستقبلي فناسبه أن تصاغ في صورة الفعل المضارع ، وكان هو السمة الغالبة علىٰ

---

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري : ٧٥٣ .

بناء نظمها (تقوم) و(تنفي المدينة)،(ينفي الكير) دلالة علىٰ معنىٰ التجدد والاستمرار، وكأن إخراج المدينة شرارها حادث ويتجدد كل يوم حتىٰ إذا قامت الساعة كانت المدينة حينئذ مكانا خالصًا لأهل الإيمان لا تبقىٰ فيها إلا العناصر الإيمانية الطيبة، وكأنها تفرز ساكنيها كل يوم، فتطرد الخبيث، وهكذا يكون حالها حتىٰ قيام الساعة، وهنا تكون أرضها أطهر ما يكون بما عليها من أهل الإيمان.

ونظرًا لاختلاف سياق كل صورة عدل النبي (ﷺ) عن التعبير بالفعل (تخرج) الذي عبَّر به في بناء الصورة الأولىٰ (تخرج الخبيث) إلىٰ الفعل (تنقي) وقد جاء كلُّ فعل مناسبا لسياقه؛ فالإخراج مجرد انتقال وترك المكان، ففي اللسان :" الخروج نقيض الدخول" [1]، وفي المفردات : "خَرَجَ خُرُوجًا: برز من مقرّه أو حاله، سواء كان مقرّه دارا، أو بلدا، أو ثوبا، وسواء كان حاله حالة في نفسه، أو في أسبابه"[2].

أما الفعل (تنفي) ففيه دلالة علىٰ المحو التام، والبعد والاستئصال الكامل ، وكراهية المدينة ذاتها للأشرار ، ففي اللسان : " ونَفَىٰ الرجلُ عَنِ الأَرض ونَفَيْتُه عَنْهَا: طَرَدْتُهُ فانْتَفىٰ. يُقَالُ: نَفَيْته أَنْفِيه نَفْيًا إِذا أَخرجته مِنَ الْبَلَدِ وَطَرَدْتَهُ. ونَفِيُّ القِدْرِ: مَا جَفَأَتْ بِهِ عِنْدَ الغَلْي. ونَفَتِ السحابةُ الماءَ: مَجَّته، والنَّفْوةُ: الخَرْجة مِنْ بَلَدٍ إِلىٰ بَلَدٍ"[3].

ومن هنا كان العدول إلىٰ الفعل (تنفي) دقة بلاغية منه (ﷺ) تناسب حال المدينة عند قيام الساعة، وقد تناغم التعبير به مع مقصده (ﷺ) بنقاء المدينة تماما، وخلوها ممن ليس أهلا للبقاء فيها، كما عدل بيانه (ﷺ) عن التعبير بلفظ(الخبيث) في الصورة

---

(١) لسان العرب:(خرج) .

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٧٨).

(٣) لسان العرب :(نفىٰ) .

الأولىٰ، إلىٰ التعبير بلفظ (شرارها) ،وقد جاء مناسبا لحال المدينة في آخر الزمان حيث خلوها تماما من أهل النفاق والكفار وضعاف الإيمان، وذلك عندما ترجف أرض المدينة لنزول الدجال بالقرب من أرضها عند سبخة الجرف، كما جاء في الحديث السابق في تلك الدراسة[1] في قوله (ﷺ) : (فيخرج إليه كل كافر ومنافق) ، وهؤلاء هم شرار الناس فيها وقتئذ، فالتعبير بلفظ (شرارها) في جملة التشبيه كناية معبرة عنهم أدق تعبير، كاشفة عما تحمله نفوسهم البغيضة من شر تجاه الإسلام وأهله ، وقد حكت بجرسها الصوتي قوة اندفاعهم عن المدينة، وكأنها تلفظهم وتدفعهم دفعا بعيدا عنها، فحرف الشين بما فيه من تفشٍ وتكرار الراء برعدتها ، وإطالة النطق بتكرار حرف المد الألف وامتداد الصوت به ، وحرف الهاء بخروجه من أقصىٰ الحلق، كل هذا يحاكي الطرد والرفض ، والإبعاد الشديد عن المدينة، وكأنهم نار يتطاير شررها بعيدا عن ساحتها؛ لتكون في ذلك الزمان لمن يستحقون أهلية البقاء فيها دوحةَ أمنٍ وأمان، يوم يُفْزَع غيرهم من الناس.

وقد تناغم مع قوة الرفض والمبالغة فيه هذا المجاز العقلي الذي بدا جليا في طرفي الصورة التشبيهية؛ حيث أُسند النفيُ إلىٰ المدينة ، وهي لا تنفي حقيقة، بل هي مكان للنفي، وفيه تشخيص لها وكأنها تعقل وتميز بين الخبيث والطيب، ثم تكرار الفعل (تنفي) فجاء مرة ثانية مسندا إلىٰ الكير، وهو لا ينفي حقيقة ، بل هو سبب لنفي خبث الحديد يقول ابن حجر: " وَالْمُرَادُ أَنَّهَا-أي المدينة- لَا تَتْرُكُ فِيهَا مَنْ فِي قَلْبِهِ دَغَلٌ بَلْ تُمَيِّزُهُ عَنِ الْقُلُوبِ الصَّادِقَةِ ، وَتُخْرِجُهُ كَمَا يُمَيِّزُ الْحَدَّادَ رَدِيءَ الْحَدِيدِ مِنْ جَيِّدِهِ، وَنِسْبَةُ التَّمْيِيزِ لِلْكِيرِ لِكَوْنِهِ السَّبَبَ الْأَكْبَرَ فِي اشْتِعَالِ النَّارِ الَّتِي يَقَعُ التَّمْيِيزُ بِهَا"[2].

(١) ينظر البحث صـ :٣٦

(٢)فتح الباري لابن حجر (٤/ ٨٨).

وإذا كانت الصورة التشبيهية الأولىٰ اكتفت بذكر طرفيها: المدينة والكير، وهما مفردان حسيان، وعقبت بعدهما بجملة الحال (تخرج الخبث) بإسناد الإخراج إلىٰ المدينة ، فنجد الصورة الثانية قد كساها النبي (ﷺ) ثوب الإطناب في بناء نظمها، فجاءت مركبة الطرفين؛ حيث شبه هيئة المدينة في إخراج شرار الناس منها، ونفيهم بعيدا عن ساحتها بهيئة الكير في نفي خبث الحديد؛ تناغما بديعا مع مقصده (ﷺ) في التأكيد علىٰ إثبات تلك الخصوصية للمدينة، وتسليطا للضوء علىٰ كل أجزاء الصورة، وتثبيتا وترسيخا له في الأذهان ، تلاؤمًا مع حفاوته (ﷺ) بمعناها ، وبتلك الخصوصية الباقية للمدينة إلىٰ قيام الساعة.

وجملة (لا تقوم الساعة حتىٰ تنفي المدينة شرارها) هي مفاد قوله (ﷺ) في الحديث السابق في تلك الدراسة (فيخرج الله كل كافر ومنافق) فهؤلاء الذين يسارعون بالخروج من المدينة عند رجفها لمحاولة الدجال اقتحامها هم شرار الناس فيها حينئذ ، وكأن إرادة الله تأبىٰ أن تقوم الساعة إلا علىٰ أطهر القلوب فيها وأكثرها ثباتا في إيمانها ، وهذا من بركة دعائه ومحبته (ﷺ) للمدينة وأهلها .

المقام السادس: تحذيره (ﷺ) من إحداث الحدث بالمدينة أو إيواء محدثه

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ) قَالَ: «الْمَدِينَةُ حَرَمٌ، فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحْدِثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَدْلٌ، وَلَا صَرْفٌ»(١).

والغرض من هذا الهدي النبوي هو تحذير النبي (ﷺ) من إحداث الحدث في المدينة أو إيواء محدثة ، ببيان جزائه، وما يستحقه من لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وعدم قبول أي عمل منه يوم القيامة.

ومن الملاحظ أن النبي (ﷺ) لم يكشف عن هذا الغرض مباشرة في أول بيانه، وإنما مهد له بتلك اللافتة التحذيرية التي جاءت في جملة (المدينة حرم) التي تنطق بالتنبيه اللافت، والتحقق الثابت، والتحذير القوي من مغبة اقتراف المحظور منه، والجملة الأولىٰ في النص أحيانا تكون أساس بنائه " حيث يرمي اللسان الطلق العذب بجملة هي أم، تتواتر جملةُ بعدها لبيان وتفصيل وتحليل هذه الجملة الأم" (٢).

وقد صاغ النبي (ﷺ) تلك الجملة في عبارة محددة دقيقة تقتضي حكمًا قاطعًا، و إقرارا حاسما ، فجاءت في كلمتين اثنتين (المدينة حرم)؛ تركيزا شديدا وتثبيتا لها في القلوب مباشرة، وصكًّا بها في وجوه المخالفين.

وقد صاغها النبي (ﷺ) في ثوب الجملة الاسمية لإفادة معنىٰ الثبوت والدوام، مما يقرر معناها ويحققه في نفوس السامعين، ويدل علىٰ ثبات هذا التحريم ثبوتا أبديا إلىٰ يوم القيامة، وإنما اختير التعبير بالجملة الاسمية؛ لأنها "

---

(١) صحيح مسلم كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النبي (ﷺ) فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمها، رقم(١٣٧١).

(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري : ٦٨٧ .

تحمل تأكيدا لا تحمله الجملة الفعلية، ذلك أن خبر الجملة الاسمية يحمل في التقدير الذي يلاحَظُ في ذهن العربي ضميرا يعود علىٰ المبتدأ، أو ما أصله المبتدأ فيكون حال الجملة الاسمية دواما مثل حال تقديم ما هو فاعل في المعنىٰ علىٰ فعله قد جري فيها الإسناد مرتين: الأولىٰ: إسناده إلي الاسم الظاهر، والثانية : إسناده إلي ضميره " [1].وفي هذا تأكيد بالغ لإثبات تلك الحرمة للمدينة، ويضاعف من تلك الحرمة تعبيره (ﷺ) بلفظ المصدر (حرم) وذلك علىٰ سبيل المجاز العقلي ؛ لعلاقة المصدرية، أي محرَّمة ، وفي التعبير بلفظ المصدر مبالغة قوية في التحذير من مغبة التعدي علىٰ حرمتها ، يضاف إلىٰ ذلك أن الدلالة اللغوية للكلمة ذاتها تقذف بالوعيد والتأكيد علىٰ تلك الحرمة، فالفعل (حرَّم) يدل علىٰ المنع، والحرام الممنوع منعا شديدا [2] .

وبعد تلك التهيئة لمقصوده (ﷺ) التي تعد غاية في براعة الاستهلال، يرتب عليها قوله: (فمن أحدث فيها حدثا ..) معبرا بالفاء بما تحمله من معاني السببية والترتيب والتعقيب؛ للإشعار بأن ما سيصدر بعد ذلك من حكم شرعي معلل بكون المدينة حرم، وهذا الحكم الذي يقذف بالتهديد والوعيد جزاء تعدي تلك الحرمة، ومن هنا كانت دقة بيان النبوة في الربط بين تلك الجملة التمهيدية (المدينة حرم) والموطئة لمراده بفاء السببية، أو التعليلية التي اقترنت بأسلوب

---

(١) البلاغة العربية أسسها وعلومها ، وفنونها ، د/ عبد الرحمن حبنكة الميداني : ١/ ٨٧ ، دار القلم – دمشق – ط ١ ، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ، للطاهر بن عاشور : (١/ ٥٩١)، الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٤ هـ، والمفردات : ١٢٢.

الشرط بـ (من)، ويؤثر بيان النبوة تلك الأداة الشرطية التي تنشر معنىٰ العموم، دلالة علىٰ أن الجزاء المذكور سينال أيَّ شخص كان، لا يُسْتَثْنَىٰ منه أحد.

وقوله: (فمن أحدث) ، أي : (أظهر في المدينة) [1]وحدثا أي: (الأمر الحادث المنكر الذي ليس بمعروفٍ في السنة، ويطلق كذلك علىٰ كل ظُلْمٍ) [2] ، وقيل: " يعني من أحدث ما يخالف الشرع من عقوبة، من بدعة، أو معصية، أو ظلم " [3].

وتنكير(حدثا) ينشر دلالة معنىٰ الشمول، والعموم، والزجر، والردع عن كل حدثٍ سواءً عن طريق الابتداع في الدين، وإحداث ما ليس منه، أو ارتكاب ما نهىٰ عنه الشرع من الظلم والبغي والعدوان .

ويوسِّع النبي (ﷺ) دائرة التهديد والوعيد، لتشمل منْ يُؤوِي من أحدث هذا الحدث فيقول: (أو آوي محدثا) : (أي نصر جانيا وآواه وأجاره من خصمه وحال بينه وبين أن يُقتَصَّ منه أو رضىٰ بالمنكر والظلم، وأقرَّ فاعله من غير إنكار" [4]. وإنّما شمله هذا الوعيد؛ لأنه بإيوائه له أعانه علىٰ الإثم والعدوان بالتكتم عنه والتستر عليه ، والحديث دال علىٰ" أن المحدث والمُؤوي في الاثم سواء" [5]، وفي هذا ردع واضح لهما، وتطهير كامل للمدينة من البدع والمنكرات لتظل نبعا طاهرا، وأرضا طيبة تفيض

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للمباركفورىٰ ، باب ما جاء فيمن تولىٰ غير مواليه: ٦/ ٣٢٣ ، تحقيق: عبد الوهاب بن عبد اللطيف، المكتبة السلفية، المدينة المنورة ، الطبعة الثانية ١٣٨٣ هـ – ١٩٦٣ م .

(٢) سبل الهدىٰ والرشاد :٣/ ٤٤٩.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم : ١١/ ٣٤ .

(٤) سبل الهدىٰ والرشاد : ٣/ ٤٤٩ .

(٥) فتح الباري لابن حجر (٤/ ٨٤).

بالإيمان والأخلاق السامية لهذا الدين؛ إذ كيف تحدث البدع والمعاصي في مكانٍ كان نقطة انطلاق الهدىٰ والنور والطهر في كل أرجاء الدنيا؟! فإذا كان ذلك محرما في أيَّة بقعة في الأرض فهو في المدينة أشد حرمة.

" ولهذا كان إظهار البدع في المدينة أعظم من إظهارها في غيرها، ولعل الحدث يشمل ما هو أشد مثل انتهاك حرمتها لقتل رجالها ونسائها أو الذي بداخله حتىٰ يشمل ما هو أشد مثل انتهاك حرمتها بقتل رجالها، أو نسائها ، أو الذي بداخلها حتىٰ يشمل هذا وهذا "[1].

وتقديم المتعلق (فيها) علىٰ المفعول المطلق (حدثا)؛ لأن المدينة مصب التحريم، ومحور الكلام، والغاية من وراء هذا التهديد والوعيد.

هذا وقد توالىٰ صوت جناس الاشتقاق بإيقاعه المتموج بين قوله (ﷺ) (أحدث – حدثا – محدثا) وكان له أثره البارز في لفت انتباه السامع، وإيقاظ النفس وإثارتها نحو الوقوف علىٰ مضمون الكلام، وما يتضمنه من معنىٰ، كما عمل علىٰ رفع صوت التهديد والوعيد من خلال تكرار المادة اللغوية (حدث) لتلك الكلمات الثلاث.

كما أعان تكرار حرف الدال بقلقلتها، والثاء اللثوية علىٰ إشاعة رنين هذه الكلمة ومشتقاتها؛ إذ هي أساس المعنىٰ ومقصوده الأول ، ولولا وجود هذه الكلمة لما كان للتهديد في الحديث مناسبة أو معنىٰ.

---

(١) شرح كتاب الحج من صحيح البخاري، لأبي محمد بن صالح بن العثيمين : ١/ ٤٢ . المكتبة الشاملة:

https://shamela.ws/rep.php/book/3317

وبعد أن أثارت جملة الشرط شغف المتلقي، وجعلته يتطلع إلىٰ جزاء من يرتكب ما جاء في بنية فعل الشرط، بعد أن اشتم من رائحته أنه من جنس العقاب، جاء في قوله (ﷺ) : (فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) مقترنا برباط قوي محكم (الفاء) التي ساعدت علىٰ ربط أجزاء المعنىٰ وتوثيق عراه.

وهذا الجزاء ينطق بالوعيد الشديد، والترهيب القوي من اقتراف فعل الشرط، فاللعن" هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله وعفوه وكرمه " [1]وهو لقسوته، وشدة وقعة، وعمق أثره في قلب المؤمن جعل أمارة في الشرع علىٰ كبر الذنب، وتحريم الفعل وذمه [2]. وهل هناك أشد علىٰ النفس المؤمنة الحية من أن تستشعر أن يصيبها شيء من ذلك؟ وذكر الشيخ الطاهر بن عاشور : أن اللعن:" الإبعاد عن الرحمة، مع إذلال وغضب، وأثره يظهر في الآخرة بالحرمان من الجنة وبالعذاب في جهنم، وأما لمن الناس إياهم فهو الدعاء منهم بأن يبعدهم الله عن رحمته" [3].

وعلىٰ هذا: ففرق بين لعن الله، ولعن الملائكة والناس ، فلعن الله "طردٌ للملعون ، وإبعاده عن رحمته" [4]، ولعنة الملائكة والناس يراد بها " الإبعاد والدعاء بالإبعاد وهؤلاء هم اللاعنون كما قال الله –تعالىٰ–: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[5][6] وعلىٰ هذا: فاللعن من الله من قبيل الخبر المحض، ولعنة الملائكة والناس خبر في الظاهر يراد به الإنشاء ، أي : الدعاء باللعن ، وفي

---

(١) لسا ن العرب : (لعن) .

(٢) ينظر: بدائع الفوائد ، لابن قيم الجوزية :٤/ ٨١٢، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا وآخرون، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز – مكة المكرمة ، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦ – ١٩٩٦ م.

(٣) التحرير والتنوير : ٢/ ٦٨ .

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم : ١١/ ٣٢ .

(٥) سورة البقرة:١٥٩.

(٦)المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم : ١١/ ٣٢ .

التعبير بلفظ الخبر إشعار بالمبالغة القوية في الإبعاد عن رحمة الله ، وتأكيد تحققها ، وكأنها وقعت ويُخْبَرُ بها، وذلك لأن " الخبر يحمل من التأكيد ما لا يحمله الإنشاء " (١).

وإضافة (اللعن) إلىٰ اسم الجلالة(الله) العلم علىٰ ذاته المقدسة، والجامع لكل أسمائه وصفاته، فيه تنفير بالغ من هذا المحذور ، وفيه أَوْقَعُ الزجرِ، وأبلغُ الردعِ عن ارتكابه .

ومما يزيد أيضًا من بشاعته، ويؤكد خطورة ارتكابه ما يُشِعرُ به إسناد اللعن إلىٰ هذا الجمع الغفير من الملائكة والناس، وبخاصة مع مراعاة معنىٰ العموم المستفاد من اللفظين من خلال التعبير فيهما بأل الجنسية، وكأنه لم يبق ملك مقرب، أو إنسان مكرم وصل إليه نبأُ هذا المحدث أو علم بمن آواه إلا وهو يدعو عليه باللعن جرَّاء إثمه وجرمه.

وإن قيل: هل اللعن المذكور في الحديث كلعن الكافر؟ ذكر ابن بطال في شرح الحديث: " أن هذا يمكن أن يكون في وقتٍ دون وقت، إن أنفذ الله عليه الوعيد، ليس أن هذا حاله عند الله أبدا؛ لأن الذنوب لا تُخْرِج من الديانة، ولا يُخرج منها غير الكفر وحده" (٢).

وقيل: " والمراد باللعن هنا العذاب الذي يستحقه علىٰ ذنبه في أول الأمر، وليس هو كلعن الكافر " (٣).

---

(١) من بلاغة النبي (ﷺ) في بيانه عن المرأة – دراسة في الصحيحين ، د/ سعيد جمعة : ١٥٤ ، رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر ، كلية اللغة العربية بالقاهرة – ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م.

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال : ٤/ ٥٣٧ .

(٣) تحفة الأحوذي : ٤/ ٤١٠ .

وما ذكره الشراح ليس فيه تهوين من ارتكاب الفعل المحظور منه في الحديث، بل يتنامىٰ التهديد ويتصاعد الوعيد إذا صوَّبنا وجهنا نحو كتاب الله – تعالىٰ– فنجد تلك الصيغة (لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) سجلها القرآن الكريم جزاءً لمن صدر عنه أعظم الذنب، وأبشع الجرم في حق الله والنفس، وهو الكفر بالله (ﷻ) والموت علىٰ ذلك ،قال – جل شأنه – : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾[1] ، وقال – سبحانه – : ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ٨٧﴾[2] .

فهذا الجزاء بتلك الصيغة الرادعة لم يسجل في القرآن الكريم إلا في حق هذا الصنف من الناس، وكأن من أحدث في المدينة حدثا ،أو آوي محدثا ،حاله في العقاب والجزاء عند الله مثل من كفر بالله (ﷻ) ومات علىٰ ذلك، وكفىٰ بذلك تنفيرا وترهيبا حتىٰ ولو كان اللعن في الحديث خرَّجه الشرَّاح علىٰ التقييد بزمن معين ، وفي الآيتين علىٰ إطلاقه أبدا.

ولذلك قال العلماء: " استدل بهذا علىٰ أن الحدث في المدينة من الكبائر"[3].

---

(١) سورة البقرة ، الآية :١٦١.

(٢)سورة آل عمران، الآيتان :٨٦-٨٧

(٣) فتح الباري لابن حجر٤/ ٨٤، و تحفة الأحوذي :٥/ ٤١٠. نيل الأوطار، للشوكاني : (٥/ ٤٠)، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، الناشر: دار الحديث، مصر، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

والجمع بين لعنة الله والملائكة والناس أجمعين مما يشعر بإجلال الله (ﷻ) لحرمة المدينة، وأن كل فطرة نقية طبعت عليها الملائكة، وكل نفس مؤمنة سوية، ترفض وتأبىٰ التعدي علىٰ حرمة تلك الأرض الطاهرة بالابتداع فيها، وارتكاب المعصية والمحرمات بها.

وإمعانا في الترهيب والوعيد، ومبالغة في الزجر والتنفير لا تكتفي لغة بيانه (ﷺ) بهذا الجزاء فيضيف إليه قائلا: (لا يقبل منه يوم القيامة عدل ولا صرف) فما أعظم خيبته وما أشد حسرته يوم يقابل ربه ،فلا يقْبَل منه صرفا ولا عدلا، وقد جاءت هذه الجملة مفصولة عن سابقتها لكمال الاتصال؛ إذ تؤكد مضمون سابقتها ، وتقرر ما فيها من جزاء ووعيد، فإذا كانت سابقتها أبانت عن لعنة الله والملائكة والناس أجمعين له ، فهذه تؤكد عدم قبول عمله ، وكلاهما يلتقي في معنىٰ الخسار والهلاك والبوار.

ومن الممكن أن يكون الفصل هنا لقصد الاستئناف؛ لإشباع هذا الجزء من المعنىٰ؛ إذ فيه تصعيد وترق في الجزاء؛ قرعا لنفسه ، ولطمًا لوجهة، وتبشيعا لجزاء إثمه وذنبه .

ومجيء هذه الجملة بعد سابقتها فيه توسيع لدائرة الجزاء؛ حيث يشمل اللعن في الدنيا والخسران في الآخرة ، وعدم قبول العمل .

وقوله: (صرف وعدل) ذكر ابن حجر اختلاف الشراح في بيان معنيهما، ونقل عنهم عشرة أقوال ، وذكر أن الجمهور علىٰ أن الصرف: الفريضة، والعدل النافلة ، وروي ذلك ابن خزيمة بإسناد صحيح عن الثوري[1] وأرىٰ أن هذا التعبير

(١) ينظر إليها في: فتح الباري: ٤/ ٨٥ ، وينظر : شرح صحيح البخاري لابن بطال ، كتاب الحج : ٤/ ٥٣٧ ، وينظر : تحفة الأحوذي : ٥/ ٤١٠ .

من بيانه (ﷺ) ليس المقصود به حقيقة معناه، بل لازمه وذلك علىٰ سبيل التعبير الكنائي ؛ إذ هو كناية عن إحباط عمله وعدم رضا الله عنه، ونقل ابن حجر عن عياض قوله: " مَعْنَاهُ لَا يُقْبَلُ قَبُولَ رِضًا وَإِنْ قُبِلَ قَبُولَ جَزَاءٍ " [1].

ويقول الراغب: " وقولهم: لا يقبل منه صرف ولا عدل، فالعدل قيل: هو كناية عن الفريضة، ... والصرف: النافلة وهو الزيادة علىٰ ذلك ، فهما كالعدل والإحسان، ومعنىٰ أنه لا يقبل منه أنه لا يكون له خير يقبل منه" [2].

والنفي بـ (لا) بما فيها من مد متطاول بحرف الألف يشيع إحباط عمله، وينشر عموم رفضه في وعي كل سامع، وتسليطها علىٰ الفعل المضارع (يقبل) دلالة علىٰ تجدد النفي واستمرار الحكم أبدا، والتعبير بهذا الفعل له دلالته، فالقبول هو محط الثواب، وأساس الأعمال، وعليه تعقد الآمال، ولذلك يقول الراغب: "والتقبل: قبول الشيء علىٰ وجه يقضي ثوابا، كالهدية ونحوها "[3].

والتعبير بما لم يسم فاعله (يقبل) للعلم بالفاعل، تركيزا علىٰ المعنىٰ ، وتسليطا للضوء علىٰ نفي القبول وفي رواية : ((لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا ..))[4] بإسناد القبول منفيا إلىٰ اسم الجلالة بما يضفيه علىٰ المقام من بث الخوف في النفوس ، وغرس الرهبة في القلوب، باستحضار عظمته جل شأنه – في مقام عدم رضاه عن عمله يوم القيامة، زجرا وإبعادا ، وإرعادا وتخويفا من

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٤/ ٨٦). وتحفة الأحوذي (٥/ ٤١٠). فتح المنعم شرح صحيح مسلم (٦/ ١٧٤).

(٢) المفردات : ٣٣٠ .

(٣) السابق : ٣٩٣ .

(٤) مسند أحمد : (٢/ ٤٥٠). والمعجم الكبير للطبراني : (٧/ ١٧٠) ،تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية.

الوقوع في فعل الشرط، أو الاقتراب من حماه ، وتزداد تلك المعاني وتتكاثف بمراعاة هذين القيدين (منه)، و(يوم القيامة)، وتقديمهما علىٰ لفظ المسند إليه، وتقديم القيد الأول (منه)، تعجيلا له بلطم وجهه، وإعلان خيبته، وإظهار حسرته؛ لأن هذا العمل المنكر الذي ارتكبه كان وراء هذا الخسران الذي أدركه في هذا اليوم (يوم القيامة) وهو القيد الثاني الذي جاء تتميما للمعنىٰ، وتحديدا للدلالة، وتحريرا للمراد، وهو قيد يكشف عن عظم الوعيد باستحضار مشاهد وأهوال ذلك اليوم الرهيب المهيب ، والتحديد بهذا القيد أيضا في ظل هذا المقام مما يربي المهابة، ويضاعف الخشية، ويغرس الوعيد، وينذر بالعقاب الشديد من ارتكاب ما جاء في بنية الشرط، وهو إحداث الحدث في المدينة أو إيواء محدثه ، وهذا بلا شك يؤكد ما يهدف إليه الحديث من إثبات تلك الخصوصية البالغة، والفضيلة العظمىٰ للمدينة.

المقام السابع: تحذيره (ﷺ) من إرادة أهلها بالسوء.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ (ﷺ) : «مَنْ أَرَادَ أَهْلَ هَذِهِ الْبَلْدَةِ بِسُوءٍ – يَعْنِي الْمَدِينَةَ – أَذَابَهُ اللهُ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ» (١).

لقد توعد النبي (ﷺ) كل من يتجرأ علىٰ ترويع أهل المدينة ويريدها بالسوء، وبيَّن عاقبته ومآله، وما ينزل به من الهلاك والدمار، والمحو والضياع ، كما دعا علىٰ من يريد أهلها بالسوء، فعن عبادة بن الصامت (رضي الله عنه) عن رسول الله أنه قال: ((اللَّهُمَّ مَنْ ظَلَمَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ وَأَخَافَهُمْ فَأَخِفْهُ، وَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ)) (٢).

وهذا الهدي النبوي يبدو منه التحذير اللافت منه (ﷺ) لمن يريد أهل المدينة بالسوء ، والوعيد الشديد لمن يتجرأ علىٰ فعل ذلك ، وأول ما يلفت النظر فيه هو بناؤه (ﷺ) له في ثوب الشرط مما أبرز الجزاء في صورة الأمر الجازم، والحكم القاطع ، وذلك لما في أسلوب الشرط من الدلالة علىٰ أن الجواب واقع ومحقق لا يتخلف أبدا ، إذا ما وقع فعل الشرط ؛ وذلك لترتب الجزاء علىٰ الشرط في الوقوع ، فضلا عما أفاده أسلوب الشرط من إثارة وتشويق وتطلع إلىٰ معرفة الجواب ، ولاشك أن النفس عندما تتلقي قوله (ﷺ) : (من أراد هذه البلدة بسوء ...) تتطلع إلىٰ معرفة الجواب ، وتستثار لمعرفة عاقبة ذلك ، وهذا مما يوقظ عند السامع مدارك الحس ، ويجعله متأهبا لسماع الجواب ، فإذا ما وقع تمكن في ذهنه فضل تمكن .

---

(١) صحيح مسلم كتاب الحج، باب من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله، رقم(١٣٨٦)

(٢)رواه الطبراني في المعجم الأوسط بإسناد جيد : (٤/ ٥٣) ،تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين – القاهرة .

وقد اصطفىٰ النبي(ﷺ) من بين أدوات الشرط (من) بما فيها من الدلالة الكلية العامة ليشمل التحذير كل مكلف وجميع الأطياف مسلمهم وكافرهم ، فـ (من) تستعمل للعاقل، مذكرا أو مؤنثا ، مفردا أو غيره [1] ، لكن دلالتها علىٰ المفرد من قبيل الحمل علىٰ اللفظ ، وعلىٰ الجمع من قبيل الحمل علىٰ المعنىٰ[2] ، كما أنها مبهمة في أزمنة الربط ، فلا تدل علىٰ زمن معين من أزمان ربط الجواب بالشرط [3] ومن ثمَّ انسجمت بدلالتها المبهمة علىٰ معنىٰ عموم التحذير، وعدم التقييد بزمنه(ﷺ) ، بل يمتد ليشمل (من كان في زمنه أو بعده ، وهو علىٰ سنته) [4] ، ومعلوم – كما يقول علماء الأصول– أن الأمر يظل علىٰ إطلاقه وعمومه ما لم يرد نص يقيده أو يخصصه .

والتعبير بالفعل (أراد) علىٰ صيغة الماضوية مما يبعث في النفوس الخوف والرهبة من إرادة أهل المدينة بالسوء ، وهذا – بلا شك – أدعىٰ إلىٰ أن تكون النفوس صافية نقية محبة لأهل المدينة ؛ فلا يعتريها أية شائبة من بغض أو كره ربما يدفعان إلىٰ العزم والهم علىٰ توجيه السوء نحوهم.

---

(١) ينظر: المعجم الوافي في أدوات النحو العربي ، د/ علىٰ توفيق الحمد ، أ/ يوسف جميل الزعبي : صـ٣١٨ ، دار الأمل – الأردن – ط ٢ ، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م.

(٢) ينظر : النحو الوافي ، أ / عباس حسن : ٤/٤٢٨ ، دار المعارف – مصر – ط ٣ – ١٩٧٤م.

(٣) حاشية الصبان علىٰ شرح الأشموني : ٤/ ١٧ ، تحقيق : طه عبد الرءوف سعد – المكتبة التوفيقية – ط ١ ، بدون .

(٤) مصابيح التنوير علىٰ صحيح الجامع الصغير ، محمد بن ناصر الدين الألباني : ١/ ١٧٠ – إعداد وترتيب : أبو محمد معتز أحمد عبد الفتاح .

وتعليق الجزاء علىٰ مجرد الإرادة في الحديث فيه شوب من أسلوب القرآن في التحذير من إرادة الإلحاد بظلم في البيت الحرام ، قال – جل شأنه – : ﴿**وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾[1] ، والإلحاد " الانحراف عن الاستقامة وسواء الأمور ، ويطلق علىٰ الإشراك والمعاصي؛ لأنها ظلم للنفس "[2].

والآية واضحة وصريحة في تعليق هذا العذاب الأليم، والمسند إلىٰ الله (ﷻ) علىٰ مجرد الإرادة ، وذلك حتىٰ يظل هذا البيت عامرا بالتوحيد ، بعيدا عن حومة المعاصي والذنوب ، ولعل هذا ما أراده (ﷺ) لأهل المدينة ؛ حبا منه واعترافا بالفضل والجميل لهم ، وهذا التفضيل منه (ﷺ) لهم " لم يرد نظيره لبقعة سوىٰ المدينة ، ولذلك يتعين علىٰ الناس محبة أهل المدينة وسكانها وقطانها وجيرانها وتعظيمهم "[3].

وتتعاظم محبته (ﷺ) لأهلها من خلال النظر والتدقيق في عبارته (ﷺ): (من أراد أهل هذه البلدة) ، فهذا التعبير النبوي يفيض بعدة دلالات لا تظهر في قوله : (من أراد المدينة بسوء ...) بإيقاع فعل الإرادة علىٰ المدينة ذاتها ، **ومن هذه الدلالات :**

❖ أن تعبيره (ﷺ) فيه تصريح واضح بحرمة أهل المدينة أنفسهم ، بخلاف القول الآخر ؛ إذ يفهم منه حرمتهم ضمنا، إما عن طريق المجاز بإطلاق المحل

---

(١) سورة الحج، جزء من الآية :٢٥.

(٢) التحرير والتنوير : ١٧/ ٢٣٩ .

(٣)فيض القدير شرح الجامع الصغير ، للمناوي: (٦/ ٤٠) ، المكتبة التجارية الكبرىٰ – مصر، الطبعة: الأولىٰ، ١٣٥٦ هـ .

(المدينة) وإرادة أهلها ، أو عن طريق حذف المضاف ؛ إذ التقدير حينئذ : من أراد أهل المدينة .

❖ كما نلمح فيه – أيضًا – إعطاءهم تلك الخصوصية، سواء أكانوا في المدينة أم خارجها ، فالحرمة ثابتة لهم كحرمة المدينة ، وفي هذا مزيدُ تفضيل لهم عن بقية الناس فمن وجد واحدًا منهم في أي البقاع، وعلم أنه من أهل المدينة المنورة كان الحذر من إرادته بسوء قويا امتثالا لهديه (ﷺ)، فمن أحبهم الحبيب وجبت علىٰ النفوس محبتهم وإكرامهم .

❖ كما مكن تعبيره (ﷺ) من إبراز اسم الإشارة (هذه) بما يفيض به من معاني التعظيم والتفخيم للمدينة ، وما يوحيه بأنهم إنما استمدوا هذا الفضل ببركة هذا المكان .

❖ ولعل في تعبيره (ﷺ) في تلك الجملة بلفظ (البلدة) ما يعكس شيئا من مقصده (ﷺ) من إبراز شيء من طباعهم الخيِّرة، وما يتَّسِمُون به من تآلف الناس ومحبتهم ، هكذا كانوا يوم وطئت قدماه الشريفتان أرضهم وما زالوا ، فلفظة (البلدة) ذاتها تُشْعِر بعِلِيَّة تلك الخصوصية ، وتتناغم مع مقصوده (ﷺ) في الحديث ، يقول الراغب : " البلد : المكان المختلط المحدود المتأنِّس باجتماع قُطَّانه وإقامتهم فيه " [1].

ولذلك نجد هذه اللفظة لم ترد في القرآن الكريم إلا في سياق الخير ، قال جل شأنه : ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾ [2] ، وقال : ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ

(١) المفردات للراغب : ٦٩ .

(٢) سورة البلد، الآيتان :١-٢.

وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ [1] ، وقال –سبحانه– : ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [2] وغير ذلك من الآيات .

والباء في قوله (ﷺ) : (بسوء) للملابسة، والسوء" كل ما يغُمُّ الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ، ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجة من فوات مال وجاه وفقد حميم " [3] ، وفي رواية : ((بدهم أو بسوء)) [4] ، والدهم : " بفتح الدال ، الداهية، والجيش العظيم، أو الفساد العظيم ، والدهم والدهماء من أسماء الداهية " [5] ، "والدهم المفاجأة بالأمر العظيم "[6]، ودهم " أي : بغائلة وأمر عظيم ، ولذا قيل المراد غاريا مغيرا عليها " [7] ، والمهم أن اللفظة تنطق بالغدر والشر، والخيانة والأذىٰ البالغ ، وفي رواية في مسند أبي يعلي : ((مَنْ أَرَادَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِشَرٍّ...))[8].

وهذه الألفاظ (بدهم – بسوء – بشر) بما فيها من تنكير تُلْقي بظلالٍ مروِّعةٍ من التَّنْفِيرِ للفعل ، وتبعث بقوة علىٰ الزجر عن ارتكابه ؛ إمعانا في الترويع والتهويل والتفظيع لهذا الفعل ، فضلا عما أفاده هذا التنكير من الدلالة علىٰ العموم والإجمال لكل دهمٍ وسوءٍ وشرٍ ، كما أن في تنوع صيغه (ﷺ) بين (دهم

---

(١) سورة سبأ، جزء من الآية :١٥.

(٢) سورة البقرة، جزء من الآية:١٢٦.

(٣) المفردات للراغب : ٢٥٣ .

(٤)صحيح مسلم كتاب الحج، باب من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله، رقم:(١٣٨٧).

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي : ١١/ ٤٠ .

(٦) النهاية لابن الأثير : ٢/ ١٤٥ .

(٧) مشكاة المصابيح للمباركفوري : ٩/ ١١٢٢ .

(٨) مسند أبي يعلىٰ الموصلي (١٠/ ٣٩١).

وسوء وشر) ما يبرز حرصه (ﷺ) ورغبته الأكيدة في تحصين المدينة وأهلها من كل مصدر من مصادر الأذىٰ حسيا كان، أو معنويا .

وبعد أن أثار النبي (ﷺ) النفوس إلىٰ التطلع والاستشراف إلىٰ معرفة الجواب أبان عنه بقوله : (أذابه الله) : " أي : أهلكه بالكلية إهلاكا مستأصلا بحيث لم يبق من حقيقته شيء " [1] .

والتعبير بالفعل (أذابه) جار علىٰ سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ؛ حيث استعير للإهلاك والمحو والإبادة والضياع ، وما يتبع ذلك من معاني الإذلال والإهانة ، وذهاب الملك والجاه ، مبالغة منه في شدة العقاب ، وإمعانا في التنفير والزجر عن ارتكاب الفعل المحذر منه ، وبخاصة في ظل إسناده(ﷺ) هذا الفعل إلىٰ اسم الجلالة (الله) بما يشعره من معاني القهر والقدرة والغلبة ، وفي هذا أتم مناسبة للمعنىٰ ، فاسم الجلالة (الله) هو الاسم الذي تفرد به – سبحانه – الجامع لصفات الألوهية، المنعوت بنعوت الربوبية ، المنفرد بالوحدانية . وقد خص به نفسه، وجعله أول أسمائه وأعظمها، وأضافها كلها إليه، فكل ما جاء سواه يكون نعتا وصفة له [2].

ثم يشفع النبي (ﷺ) تلك الصورة المجازية مع ما فيها من الدلالة علىٰ الإهلاك والاندثار بصورة بيانية أخرىٰ أشد بيانا، وأوقع تهديدا، مبالغة في تفظيع

---

(١) مصابيح التنوير علىٰ صحيح الجامع الصغير ، محمد بن ناصر الدين الألباني : ١/ ١٧٠ .

(٢) ينظر: الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ وصفاته العلىٰ، للإمام / شمس الدين أبي عبد الله القرطبي: ص ٣٤٨ ، ط١ ، ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م . وينظر: أسماء الله الحسنىٰ دراسة في البنية والدلالة، د / أحمد مختار عمر: ص ٤٢، عالم الكتب.

العقوبة، وزيادة في الترهيب ، وإبلاغا في الترويع والتهديد فقال : " أذابه الله كما يذوب الملح في الماء " .

وذكر الشيخ العيني أن : " وَجه هَذَا التَّشْبِيه أَنه شبه أهل الْمَدِينَة مَعَ وفور علمهمْ وصفاء قرائحهم بِالْمَاءِ، وَشبَّه من يُرِيد الكيد بهم بالملح؛ لِأَن نكاية كيدهم لما كَانَت رَاجِعَة إِلَيْهِ شبهوا بالملح الَّذِي يُرِيد إِفْسَاد المَاء فيذوب هُوَ بِنَفسِهِ" [1].

وواضح أنه(رحمه الله)يحمل الكلام علىٰ تعدد التشبيه ، وأرىٰ أن هذا التوجيه فيه تفكيك للصورة، وضياع للمعنىٰ المقصود ، والأولىٰ أن تحمل علىٰ التركيب ؛ حيث شبه (ﷺ) هيئة إهلاك الله (ﷻ) لمن أراد أهل المدينة بسوء بهيئة إذابة الملح في الماء ، ووجه الشبه : الاندثار أو المحو والضياع في كل ، وهو مفرد عقلي .

وهذه الصورة التشبيهية ، فضلا عما تؤكده من معاني الهلاك والإبادة ، **تشتمل على عدة لطائف منها :**

❖ -أن ختم التشبيه بـ (في الماء) فيه إيماء إلىٰ أن أهل المدينة كالماء في الصفاء[2].

❖ كما أن التعبير بالملح في الإشارة إلىٰ من يُسيء إلىٰ أهل المدينة فيه ما يُشعر أنه بإساءته فَقَدَ فطرتَه الإيمانية الصافية؛ لأن الملح فيه جانبان، إصلاح إذا استعمل في مكانه الطبيعي وبالقدر المحدد ، وإفساد إذا استعمل في غير الطبيعة المعهودة كما وكيفا، وكذلك حال هذا الرجل، تغلب عليه جانب الشر، فغطَّي

---

(١) السابق (١٠/ ٢٤١).

(٢)مصابيح التنوير علىٰ صحيح الجامع الصغير، للألباني: ١/ ١٧٠ .

ومحا طبيعته الإنسانية الخيِّرة ، فصار لا نفع منه ، بل صار مصدرا للضرر والفساد.

❖ كما أن الملح حين يذوب في الماء لا يمكن رده إلىٰ أصله وطبيعته، فكذلك من يسئ إلىٰ أهل المدينة ويقصدهم بالشر.

و(ما) في قوله (ﷺ): (كما يذوب) مصدرية أي كذَوْب، تركيزا علىٰ الحدث ذاته، واستحضارا له من خلال التعبير بالفعل المضارع، مما يبرز صورة الهلاك، والضياع أمام العين.

فروق ودلالات :

هذا المعنىٰ الذي أبان عنه (ﷺ) في الحديث السابق جاء ذكره في عدة أحاديث أخرىٰ، وكلها تلتقي حول الغرض المقصود، وهو التحذير من إرادة أهل المدينة بالسوء أو بالشر .

ففي صحيح البخاري عن سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه): قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : ((لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء))[1] ، وقوله (ﷺ) : (انماع) " علىٰ وزن (انفعل) من الميعان ، يقال : ماع الشيء يميع ، وانماع ينماع إذا ذاب "[2].

والواضح أن المحذر منه في هذا الحديث ليس إرادة أهل المدينة بالسوء، بل شيء خاص محدد لا يخرج في مجمله عن السوء أيضا، وهو الكيد ، وهو في حقيقته ، كما يقول الراغب : (ضرب من الاحتيال " [3].وهو يدور حول معاني

---

(١)صحيح البخاري كتاب: فضائل المدينة، باب: إثم من كاد أهل المدينة، رقم(١٧٧٨)

(٢)عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٦/ ١٩٦).

(٣) المفردات : ٤٤٥ .

المراوغة، والمكر، والخداع، والتزييف ، ومن هنا كان الجزاء من جنس العمل ، وكان هكذا بقصره علىٰ الميعان كما ينماع الملح في الماء، وتلك الكلمة تفوح بمعاني السخرية، والاحتقار، والازدراء، والتهكم، والاستخفاف، وقلة الشأن والمكانة ، وتلك المعاني هي ما أرادها من كيده لأهل المدينة ، فعادت عاقبةُ كيده علىٰ نفسه .

ولعل في بيانه (ﷺ) بالفعل (انماع) علىٰ هذا الوزن دون (ماع) فيه ما يوحي بفقده لمظاهر رجولته، وتحوله من العز إلىٰ الذل ، ومن المكانة إلىٰ المهانة، قسرًا وقهرا عنه .

ويطالعنا قطاف آخر في المعنى نفسه من بيان النبوة ففي مسند أحمد من حديث عامر بن سعد عن أبيه قال : قال رسول الله (ﷺ) : ((إنِّي أحرِّمُ ما بينَ لابَتَي المدينةِ، كما حَرَّمَ إبراهيمُ مكة ، لا يُقطَعُ عِضاهُها ، والمدينةُ خيرٌ لَهُم لَو كانوا يعلمونَ ، ولا يريدُهُمِ أحدٌ بسوءٍ إلَّا أذابَهُ اللهُ في النَّارِ ذوبَ الرَّصاصِ ، أو ذَوبَ المِلحِ في الماءِ)) [1].

وتذييل هذا الهدي النبوي يلتقي مع الحديثين السابقين في المعنىٰ والتصوير، ولكن النبي (ﷺ) سلك في نظمه ، ونظم حديث البخاري السابق طريقا مغايرا للحديث – محل الدراسة – حيث كان عماد بنائهما أسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء الذي – كما هو معلوم – يحمل أعلىٰ طاقات القوة والتأكيد ، وهذا التوكيد البادي في جملتي القصر، رغبة منه (ﷺ) أن يقرر معناهما في النفوس ، ويغرسهما في سويداء القلوب ، حبا منه لأهل المدينة، وتعظيما وتكريما لهم ، وقد جاء التعبير بالقصر متناغما مع التعبير بالفعلين المضارعين

---

(١)صحيح مسلم كتاب الحج، باب الترغيب في سكنىٰ المدينة والصبر علىٰ لأوائها، رقم(١٣٧٤)

الواقعين عقب النفي بـ (لا) (لايكيد) و(لايريدهم) ليضفي (ﷺ) علىٰ الحكم المفاد من جملة القصر امتدادا للزمن، من الحال إلىٰ المستقبل الممتد؛ ليظل جزاء الإساءة إلىٰ أهل المدينة ممتدا إلىٰ قيام الساعة ، ولعل هذا هو السر في سوقه (ﷺ) لهذا المعنىٰ في ثوب القصر بالنفي والاستثناء في الحديثين الأخيرين؛ ليؤكد الحكم تأكيدًا جازمًا، ويثبته في النفوس تثبيتا قويا يُقْلع به ما قد يطرأ علي نفوس بعض الناس من قصر هذا الحكم علىٰ زمنه (ﷺ) فحسب ، بخلاف الحديث محل الدراسة فقد ساقه (ﷺ) في ثوب أسلوب الشرط ؛ حيث كان الإخبار بفعل الإرادة في ثوب الماضوية ، مما يوحي بتحقق إيقاع الفعل والجزم بذلك ، فكان هذا أدعىٰ إلىٰ التعجيل بإصدار الحكم علىٰ الفاعل، وهذا ما نهض ببيانه أسلوب الشرط القائم علىٰ الفعل والجزاء . ومن ثمَّ جاءت صياغة كل حديث مناسبة لسياقها.

وبالتأمل في جملة القصر الأخيرة (ولايريدهم أحد بسوء إلا أذابه الله ذوب الرصاص في النار أو ذوب الملح في الماء) نجدها اشتملت علىٰ عدة لمسات بيانية لم تكن في الحديثين الأخيرين، منها :

- تعدد التشبيهات فيها عن طريق تشبيه الجمع [1] ؛ حيث اشتملت علىٰ تشبيه آخر، وأضافت إلىٰ الصورة التشبيهية تشبيها آخر (إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص).

---

(١) وتشبيه الجمع : هو تشبيه شيء واحد بشيئين أو أكثر ، وسمي بذلك لوجود اجتماع بين شيئين أو أشياء في مشابهة شيء واحد . ينظر: عروس الأفراح للسبكي ضمن شروح التلخيص : ٣/ ٤٣٠ ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – بدون.

– أن الصورتين التشبيهيتين فيها جاءتا في ثوب التشبيه المصدري (ذوب الرصاص) أو (ذوب الماء)، وهذا أقوىٰ وآكد في الإهلاك والإبادة ، كما أن صيغة المصدر من أحسن ما يستعمل في التشبيه، لما تحمله من قوة المبالغة في الاتحاد بين طرفي الصورة التشبيهية .

– أضافت إحدىٰ الصورتين التشبيهيتين في الحديث الأخير هذا القيد (في النار) مما أضفىٰ علىٰ الصورة التشبيهية مبالغة في التهويل والتخويف ، وحثا قويا علىٰ الزجر والتنفير من اقتراف الفعل المحذر منه ، وبخاصة في ظل إيثار السياق التعبير بأعم أسماء النار وأشهرها ، لما يجمع هذا اللفظ بين كل صفات العذاب ، وخصائص الهلاك ، ودركات الجحيم ، كما أن تعريف النار في سياق تلك الصورة التشبيهية (ذوب الرصاص في النار) مما يزيد من تفظيعها ، وينذر بكمال المحو ، وتمام الفناء .

– والسؤال لماذا اشتمل الحديث الأخير علىٰ تلك اللفتات البلاغية في نظم هاتين الصورتين التشبيهيتين دون الحديثين الأخيرين ؟ أقول – والله أعلم – لعل السر في ذلك أنها جاءت في مقام بيان تحريمه (ﷺ) للمدينة ، كما حرم إبراهيم (عليه السلام) مكة ، وذكر بعض صور هذا التحريم، ومن ثمَّ جاءت صورة القصر التي ذُيِّل بها الحديث في غاية القوة والوكادة تلاؤما مع مقام هذا التحريم الذي هو مقصود الحديث ولبه ، وهدفه الأول ومعناه الأساس ، ومن ثمَّ جعله النبي (ﷺ) في بدء بيانه بتلك الصياغة القوية اللافتة الجازمة في التحريم، والمؤكدة بأم أدوات التأكيد (إن) وتكرار الإسناد في الفعل (أحرم) والكناية عن نسبة في قوله (ﷺ) : (أحرم ما بين لابتي المدينة) ؛ إذ يلزم من تحريم ما بين لابتيها تحريم المدينة ذاتها . وهذا بلاشك آكد في إثبات التحريم .

والتعبير بهذا القيد (في النار) الذي أضافه الحديث الأخير استدل به بعض شراح الأحاديث، ومنهم القاضي عياض بأنها : " تَدْفَعُ إِشْكَالَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي لَمْ تُذْكَرْ فِيهَا هَذِهِ الزِّيَادَةُ وَتُبَيِّنُ أَنَّ هَذَا حُكْمُهُ فِي الْآخِرَةِ قَالَ وَقَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ بِهِ مَنْ أَرَادَهَا فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ(ﷺ) كُفِيَ الْمُسْلِمُونَ أَمْرَهُ وَاضْمَحَلَّ كَيْدُهُ كَمَا يَضْمَحِلُّ الرَّصَاصُ فِي النَّارِ قَالَ وَقَدْ يَكُونُ فِي اللَّفْظِ تَأْخِيرٌ وَتَقْدِيمٌ أَيْ أَذَابَهُ اللهُ ذَوْبَ الرَّصَاصِ فِي النَّارِ " (١).

ومع صحة هذه الاحتمالات وأن السياق لا يرفض واحدا منها، إلا أنني أرىٰ أن تنوع تلك الأحاديث ما بين الإطلاق والتقييد بـ (في النار) لعل النبي (ﷺ) قصد من ورائه أن يضفي معنىٰ الشمول والعموم للعقاب، فلا يقتصر علىٰ العذاب الدنيوي من المحو والهلاك والفناء ، يل يمتد ليشمل العقاب الأخروي في النار؛ حيث لهيبها وهولها وشناعة العقاب بها ، وهذا أكمل للمغزي من وراء بيانه (ﷺ)، وهو التخويف والترهيب والزجر عن الإساءة لأهل المدينة وقصدهم بالشر أو السوء .

ويضاف إلىٰ ما سبق أن مثل تلك الأخبار التشريعية التي تضمنتها تلك الأحاديث ليس القصد فيها الإعلام بوقوع مضمون الصورة الكلامية لها ، بل هي أخبار تشريعية مآل المعنىٰ فيها إلىٰ النهي (٢) أي : لا تُسيئوا إلىٰ أهل المدينة،

---

(١) شرح النووي علىٰ مسلم (٩/ ١٣٨). وينظر : إكمال المعلم شرح صحيح مسلم : ٤/ ٢٥٠ .

(٢) ينظر : مسالك العطف بين الخبر والإنشاء ، د/ محمود توفيق سعد : صـ ١٢ ، مطبعة الأمانة ، ط : أولىٰ ، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م .

ويؤيد ذلك قول ابن منظور : " وحيث وقع الزجر في الحديث فإنما يراد به النهي " [1].

وبالتأمل في تلك الأحاديث جميعها نجد أن النبي (ﷺ) عبَّر عن الجزاء في ثوب الفعل الماضي (أذابه الله) و (انماع ...) و (إلا أذابه الله ...) مع أن السياق يقتضي صيغة المضارعة ، وإنما عدل (ﷺ) عن ذلك تحقيقا للجزاء، و تأكيدا للعقاب ، حتىٰ كأنه قد وقع ، وحاصل لا محالة ، وصار كأنه يُحكي؛ مبالغة في التهديد والزجر والوعيد.

(١) لسان العرب : (زجر) .

المقام الثامن: جزاء الصبر على لأواء المدينة وشدتها .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ (ﷺ) قَالَ: «لَا يَصْبِرُ عَلَى لَأْوَاءِ الْمَدِينَةِ وَشِدَّتِهَا أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِي، إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ شَهِيدًا» (١).

لقد حث النبي (ﷺ) علىٰ سكنىٰ المدينة ، والإقامة بها ، فقال: ((مَنْ كَانَ لَهُ بِالْمَدِينَةِ أَصْلٌ، فَلْيَسْتَمْسِكْ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ بِهَا أَصْلٌ، فَلْيَجْعَلْ لَهُ بِهَا أَصْلًا، فَلَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ بِهَا أَصْلٌ كَالْخَارِجِ مِنْهَا الْمُجْتازِ إِلَىٰ غَيْرِهَا)) (٢) ، والمعنىٰ : أن يتخذ سببا يربطه بالمدينة من تجارة وزراعة وغير ذلك مما يربط المرء بموطنه ، كما حثَّ النبي (ﷺ) علىٰ الموت بها لمن استطاع ذلك، فقد روىٰ ابن ماجه: ((مَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ فَلْيَفْعَلْ، فَإِنِّي أَشْهَدُ لِمَنْ مَاتَ بِهَا)) (٣) .

والحديث محل الدراسة فيه حث قوي من النبي (ﷺ) علىٰ الصبر علىٰ ظروف الحياة في المدينة، ببيان هذا الثواب العظيم الذي وعد به، وهو نيل شفاعته، أو الشهادة منه يوم القيامة، وأعْظِم بهذا من ثواب!.

وهذه الخصوصية للمدينة كانت دافعا قويا للصحابة- رضوان الله عليهم – إلىٰ نهي بعضهم بعضا ، والإنكار علىٰ بعضهم عندما يرغب أحدُهم في الخروج منها ، متطلعا إلىٰ وفرة مطالب الحياة ورغد العيش في غيرها من الأمصار التي فتحت بعد ذلك، من ذلك ما جاء في رواية مسلم عن يُخَنسَّ مولىٰ آل الزبير بن

---

(١) صحيح مسلم كتاب الحج، باب الترغيب في سكنىٰ المدينة والصبر علىٰ لأوائها، رقم(١٣٧٨).

(٢) سنن الترمذي كتاب المناقب عن رسول الله (ﷺ)، باب في فضل المدينة، رقم(٣٩١٧).

(٣) سنن ابن ماجه، كتاب المناسك، باب فضل المدينة، رقم(٣١١٢).

العوام أنه كان جالسا عند عبد الله بن عمر في الفتنة [1] فأتته مولاةٌ له تسلم عليه ، فقالت : إني أريد الخروج يا أبا عبد الرحمن ، اشتدَّ علينا الزمانُ ، فقال لها عبد الله : اقعُدِي لَكَاع فإني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : ((لا يصبر علىٰ لأواء المدينة ... الحديث)) [2].

واللكع عند العرب : " العبد ، ثم استعمل في الحمق والذم ، يقال للرجل : لكع ، وللمرأة : لكاع بفتح اللام " [3].

قال النووي في شرح مسلم : " وخاطبها ابن عمر بهذا إنكاراً عليها لإدلاله عليها لكونها ممن ينتمي إليه ويتعلق به وحثها علىٰ سكني المدينة لما فيه من الفضل " [4] .

وفي رواية أخرىٰ للإمام مسلم – أيضا – عن أبي سعيد مولىٰ المهْرِيِّ أنه جاء أبا سعيد الخدري ليالي الحرة ، فاستشاره في الجلاء من المدينة ، وشكا إليه أسعارها، وكثرة عياله، وأخبره أن لا صبر له علىٰ جهد المدينة ولأوائها ، فقال له: ويحك ! لا آمرك بذلك، فإني سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : ((لا يصبر علىٰ لأوائها فيموت إلا كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة إذا كان مسلما)). [5]

---

(١) المراد بالفتنة هنا : وقعة الحرة التي وقعت زمن يزيد بن معاوية ، وقد نهبت فيها المدينة ثلاث سنين ، ينظر: شرح النووي : ٩/ ١٥١ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الحج، باب الترغيب في سكنىٰ المدينة والصبر علىٰ لأوائها، رقم(١٣٧٨).

(٣) ينظر : النهاية لابن الأثير : ٤/ ٢٦٨ .

(٤) تحفة الأحوذي : (١٠/ ٤١٧).

(٥) صحيح مسلم كتاب الحج، باب الترغيب في سكنىٰ المدينة والصبر علىٰ لأوائها، رقم(١٣٧٤)

وهذه المواقف وغيرها تكشف عن أن المدينة في ذلك الحين لم تكن أرض رخاء تتوفر فيها مقومات الحياة وأسباب العيش ، ولذلك كانت تتطلع بعض النفوس إلىٰ تركها ، ومن هنا جاء بيان النبوة ليحُول بينهم وبين ذلك ؛ تحصيلا لهذا الثواب العظيم الذي وعد به رسول الله (ﷺ).

وأول ما يلفت النظر البلاغي في هذا الهدي النبوي هو مجيؤه في جملة واحدة كانت في غاية التلاحم ، والترابط ، وقوة السبك بين المفردات المكونة للبناتها ، فالقارئ له لا يصل إلىٰ المعنىٰ المراد منه إلا بالوقوف علىٰ آخر كلمة فيه ، فلا يكاد يصل إلىٰ سمعه النفي بـ (لا) بما فيها من مد متطاول يثير الانتباه، ويلفت الأذهان، ويبعث علىٰ التشويق إلىٰ معرفة المنفي، ويجعل النفس تتطلع إليه، فيجد الفعل (يصبر) فيزداد شغفا بمتعلق الصبر، وعلىٰ أي شيء يكون، فإذا وقف عليه (علىٰ لأواء المدينة وشدتها) أثار انتباهه تأخير المسند إليه لفظ (أحد) ولم أُخِّر ؟ ولماذا قدم القيد السابق، فإذا وصل إلىٰ أداة الاستثناء (إلا) ازداد تعلقا بمعرفة ما وراء تلك الأداة حتىٰ يصل إلىٰ نهاية الحديث.

وهكذا تتحدر الألفاظ بعضها إثر بعض في تلاحم قوي ، يجعل أجزاء الحديث يَشُدُّ بعضُها بعضا ، ويأخذ بعضُها بعناق بعض ، وهذا السمت من الكلام مما أشاد به الإمام عبد القاهر (رحمه الله)وجعله من النظم العالي، والباب الأعظم الذي لا يرىٰ سلطان المزية فيه يعظم كعِظَمه فيه، فنراه يقول عنه : " واعلمْ أنَّ ممَّا هو أَصلٌ في أنَ يدِقَّ النظرُ، ويَغْمُضَ المَسْلكُ، في توخِّي المعاني التي عرفتَ: أنْ تتَّحِدَ أجزاءُ الكلامِ ويَدخلَ بعضُها في بعضٍ، ويشتدَّ ارتباطُ ثانٍ

منها بأول، وأن تحتاج في الجِملة إِلىٰ أن تضَعَها في النفس وضعًا واحداً، وأن يكونَ حالُكَ فيها حالَ الباني يَضعُ بيمينه ههنا في حالِ ما يَضَعُ بيَسارِه هناك " [1].

وواضح أن عماد تلاحم الكلام في هذا الهدي النبوي وارتباط أجزائه هو بناؤه له (ﷺ) في ثوب القصر ؛ حيث قصر جزاء من يصبر علىٰ لأواء المدينة وشدة ظروف العيش بها، علىٰ كونه شفيعا له يوم القيامة أو شهيدا ، وهو قصر موصوف علىٰ صفة قصرا حقيقيا.

وفي صياغة النبي (ﷺ) لهذا المعنىٰ في ثوب القصر حث قوي علىٰ الصبر علىٰ لأواء المدينة وشدتها حتىٰ يفوز بهذا الثواب العظيم ، وهو ليس شيئا هينا بسيطا ، فهل هناك أعظم من أن يحظىٰ العبد بنيل شفاعة المصطفىٰ (ﷺ) والشهادة منه ؟

ونظرا لجلال هذا المعنىٰ وفخامته ، وعِظَمِة حُقَّ لبيان النبوة أن يجئ به في ثوب القصر ، فالمعاني العظيمة الفخمة من شأنها أن تُصاغ صياغة حافلة عظيمة مثلها .

وإيثاره (ﷺ) لهذا الطريق من طرق القصر – النفي والاستثناء – مع أن الأصل فيه أنه لا يجيء إلا لمنكر أوْ ما ينزَّل منزلته، ليس راجعا إلىٰ حال المخاطبين من الصحابة ، فهم لا ينكرون ولا يشكون في كلمة تخرج من فمه الشريف (ﷺ)، ولكنه (ﷺ) صاغ هذا المعنىٰ صياغة قوية مؤكدة حتىٰ يثبت في نفوسهم ، ويقرره في عقولهم ليقلع ما قد يطرأ علىٰ نفوس بعض منهم في ترك المدينة وبخاصة فيما يأتي بعده من أجيال متعاقبة في المدينة ؛ اعتقادا منها أن الصبر علىٰ سكناها كان رغبة من السابقين في أن يحظوا بصحبة النبي الكريم والعيش منه، ومن هنا عمد النبي (ﷺ) إلىٰ التعبير بالفعل المضارع بعد (لا)

---

(١) دلائل الإعجاز : (ص ٩٣)، وينظر : صـ ٩٥ .

النافية، مما أعطىٰ موعوده طابع التجدد والاستمرارية الدائمة ، مما يفيد أن هذا الثواب ليس مقصورا علىٰ زمنه (ﷺ)، بل يمتد حتىٰ قيام الساعة ببركة وعده (ﷺ) في الحديث ولذلك يقول أبو عبد الله الأبي: " الْحَدِيثُ خَرَجَ مَخْرَجَ الْحَثِّ عَلَىٰ سُكْنَاهَا فَمَنْ لَزِمَ سُكْنَاهَا دَاخِلٌ فِي ذَلِكَ وَلَوْ لَمْ تَلْحَقْهُ لَأْوَاءٌ لِأَنَّ التَّعْلِيلَ بِالْغَالِبِ وَالْمَظِنَّةِ لَا يَضُرُّ فِيهِ التَّخَلُّفُ فِي بَعْضِ الصُّوَرِ كَتَعْلِيلِ الْقَصْرِ بِمَشَقَّةِ السَّفَرِ " (١).

ويدعم هذا المعنىٰ تعبيره (ﷺ) بلفظ المسند (أحد) نكرة بعدم التنصيص علىٰ فاعل معين ، مما يفيد العموم والشمول، ويُوَسِّع ويعاظم موعوده(ﷺ) لكل ساكنيها في الأصل ، وغيرهم ممن استوطنوها متعلقةً نفوسُهم إلىٰ نيل ما وعد به رسول الله (ﷺ)، وهذا من عطاء التعبير بلفظ أحد فهو " أقل كلاما وأكثر فائدة ؛ لأنه يطلق علىٰ الذكر والأنثىٰ ، والقوىٰ والضعيف ، والحر والعبد، والعالم والجاهل ، والعلي والدنيء علىٰ اختلاف أحوال العالم " (٢).

ثم يؤكد النبي (ﷺ) هذا العموم بهذا القيد الواقع حالا (من أمتىٰ) فهو ليس تخصيصا للثواب علىٰ أفراد أمته ونفيه عن غيرها؛ وإنما فيه نشر لظلال هذا العموم، وإشعار بعظيم فضله (ﷺ) علىٰ ساكني المدينة ، وأنهم إنما نالوا هذا الجزاء، وكل من سكنها بفضل كونهم من أمته ، كما تشعر الإضافة إلىٰ ياء التكلم في قوله (ﷺ): (من أمتىٰ) ببالغ حبه (ﷺ) لساكني المدينة ، وأنه يعتز اعتزازا بالغا بنسبتهم إليه ، لحرصهم علىٰ البقاء في المدينة وتحصيل الأجر والثواب فيها ، وأكرم بهذا من فضل ثابت لهم إلىٰ يوم القيامة .

---

(١) شرح الزرقاني علىٰ الموطأ (٤/ ٣٤٧)

(٢) بهجة النفوس شرح مختصر صحيح البخاري : ١/ ٧٠ ، ابن حمزة الأندلسي – دار الجيل – بيروت – ط ٣ ، بدون .

وفي تقديمه (ﷺ) للقيد (علىٰ لأواء المدينة وشدتها) علىٰ المسند إليه ، وما وراءه من قيد (من أمتي) ما يدل علىٰ أهمية المقدم .. ولفت النفوس إليه ؛ لأنه مناط هذا الثواب العظيم ، ولذا فالنفوس ينبغي أن تنظر إليه بعين التقبل والرضا، لا بعين السخط والتبرم ، واللأواء في اللغة : الشدة في العيش والمشقة ، وقيل : القحط [1]، وقيل: " تعذر الكسب، وسوء الحال " [2]، وعطف الشدة عليها؛ للتفسير، أو التأكيد ، أو أن المراد بها ضيق المعيشة وتعسر الكسب ، والشدة : ما يصيب الإنسان في بدنه بسبب شدة الحر والبرد أو نحو ذلك [3].

والمهم أن التعبير بهاتين اللفظتين دقة نبوية بالغة ؛ حيث يصوران بجرسهما الصوتي وبنائهما اللغوي المعني ، وما فيه من شدة الثقل " وثقلُ اللفظ يوحي بثقل المعنىٰ للتلازم الأكيد بين اللفظ والمعنىٰ "[4] ، فكلمة(لأواء) وحدها تشتمل علىٰ ثلاثة مقاطع صوتية ، والمقطع الأول منها (لأ) يحكي معنىٰ الرفض ، وعدم التقبل، والثاني : (وا) يبدأ بحرف الواو التي أكثر ما تُضَمُّ بها الشفتان في مواقف الهم والحزن ، ولذا تستعمل في الندبة والاستغاثة ، ثم المقطع الثالث (ء) بتلك الهمزة التي هي من أقصىٰ درجات الحلق مع ما عليها من حركة الكسر ،والمناسبة لانكسار النفس، والتي تصور الضيق والشدة تصويرًا بالغا ، ولم يكتف نظم بيانه (ﷺ) بتلك اللفظة المعبرة بدلالتها وجرسها ، بل عطف لفظ (وشدتها)بعود الضمير فيها إما علىٰ لفظ (اللأواء) ذاته فيضاعف معاني الشدة فيها أضعافا مضاعفة ، وإما بعود الضمير علىٰ المدينة نفسها ، فيؤكد معنىٰ الشدة

---

(١) لسان العرب : لأي.

(٢) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٩/ ٥١٥).

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح : ٧/ ٣٣٩ – ٣٤٠ .

(٤) شرح أحاديث من صحيح مسلم ، د/ محمد أبو موسىٰ : ١١٧ .

السابق ، والمفهوم من لفظ (اللأواء) ، والمهم أيضا أن الجرس الصوتي للكلمة يحكي المعنىٰ ويجسده ، فحرف الشين بما فيه من تفش وانتشار واتساع في الفم ؛ لأن الهواء يتفشىٰ عند ارتفاع طرف اللسان إلىٰ مؤخر اللثة ومقدمة الحنك الأعلىٰ عند نطقه ، فلا يقتصر تسرب الهواء علىٰ المخرج ، بل يتوزع في جنبات الفم [1]. مع ما فيه من كسر لحركته يعكس وطأة الحياة ويصور الشدة، والمعاناة ثم الضغط علىٰ حرف الدال وما فيه من قلقلة، وجهر، وانفجار، وغيرهما من صفات القوة، ثم حرف (الهاء) وهي من أقصىٰ حروف الحلق مع الهواء المنبعث وراءها من حرف المد (الألف)، هذا الأداء الصوتي لهاتين الكلمتين ليس ببعيد عن تصوير ما كانت تتسم به حياة المدينة في ذلك الحين من جهد ومشقة ، ووطأة ظروف العيش، وقلة توفر أسباب الحياة ، وكذلك طبيعة جوها من الحر الشديد صيفا، والبرد القارس شتاء ، وقد فطن علماؤنا القدامىٰ إلىٰ طبيعة العلاقة القائمة بين الإيقاع الصوتي للكلمة وأثره الدلالي ، وقد أكد تلك العلاقة منذ القدم ابن جني بقوله : " فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث، فباب عظيم واسع، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم. وذلك أنهم كثيرًا ما يجعلون أصوات الحروف علىٰ سمت الأحداث المعبَّر بها عنها، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها، وذلك أكثر مما نقدره، وأضعاف ما نستشعره " [2] .

وبعد أن تشوقت النفوس إلىٰ معرفة الجزاء وتطلعت لما بعد أداة الاستثناء أسعفها النبي (ﷺ) بقوله : " إلا كنت له ... ، والتعبير بفعل الكون (كنت)

---

(١) ينظر : نظرية اللغة والجمال في النقد الأدبي ، د/ تامر سلوم: ١١٠ – دار الحوار للنشر والتوزيع (سورية – اللاذقية)، ط : أولىٰ – ١٩٨٣ م .

(٢) الخصائص، لابن جني : (٢/ ١٥٩)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة.

ماضيا مع أن مقتضىٰ الظاهر أن يعبر به في صيغة المضارعة (أكون) فيه تأكيد علىٰ تحقق الجزاء ووقوعه ، وكأنه واقع وقد حصل بالفعل ، والنبي (ﷺ) يخبر عن ذلك ، يقول ابن الأثير في فائدة هذا العدول : " أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ، وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنىٰ أنه قد كان ووُجد، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يُستعظم وجودها" [1] ، وهل هناك أعظم من الوعد بنيل شفاعته أو شهادته يوم القيامة؟ وتحقيق هذا الوعد وتأكيده لم يكن ليظهر لو عبَّر النبي (ﷺ) بقوله : " إلا أشفع له يوم القيامة، " فالتعبير بفعل الكون ماضيا في بيانه (ﷺ) أدخل في التوكيد وآكد في إثباته ، كما مكن بيانه (ﷺ) من التعبير بصيغتي المبالغة (شفيعا أو شهيدا) تعظيما لموعوده (ﷺ)، وتفخيما لهذا الثواب .

وتقديم المتعلق (له) عناية بالمقدَّم واهتماما به ، وتعجيلا بالبشارة ، وإسراعا بالتهنئة ، فمنه كان الصبر ، وإليه يكون الثواب والأجر ، وما أعظمه وأجله ، وهو نيل شفاعته (ﷺ) وشهادته يوم القيامة، وتلك الشفاعة كما يقول علماؤنا غير الشفاعة العامة ، وهذه الشهادة غير شهادته (ﷺ) علىٰ الخلق يوم القيامة وعلىٰ أمته ولذلك يقول النووي : " وَهَذِهِ خُصُوصِيَّةٌ زَائِدَةٌ عَلَىٰ الشَّفَاعَةِ لِلْمُذْنِبِينَ أَوْ للعالمين في القيمة وَعَلَىٰ شَهَادَتِهِ عَلَىٰ جَمِيعِ الْأُمَّةِ وَقَدْ قَالَ(ﷺ) فِي شُهَدَاءِ أُحُدٍ أَنَا شَهِيدٌ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ، فَيَكُونُ لِتَخْصِيصِهِمْ بِهَذَا كُلِّهِ مَزِيدٌ أَوْ زِيَادَةُ مَنْزِلَةٍ وَحِظْوَةٍ " [2] .

---

(١) المثل السائر: (٢/ ١٤٩)

(٢)شرح النووي علىٰ مسلم (٩/ ١٣٧). وينظر : فيض القدير للمناوي : ٦/ ١٥٤ .

وهذه الشفاعة – كما قيل – تكون : " بِزِيَادَة الدَّرَجَات، أَو تَخْفيف السيئات، أَو بِمَا شَاءَ الله من ذَلِك، أَو بإكرامهم يَوْم الْقِيَامَة بأنواع من الْكَرَامَة كإيوائهم إِلَىٰ ظلّ الْعَرْش، أَو كَونهم فِي روح ،أَو علىٰ مَنَابِر ، أَو الْإِسْرَاع بهم إِلَىٰ الْجنَّة، أَو غير ذَلِك من خُصُوص الكرامات " (١).

والأولىٰ أن يُفَوَّض أمرهما – الشهادة أو الشفاعة إلىٰ الله (ﷻ) ، ولا يُضَيَّق متسع وعد به رسول الله (ﷺ)، وبخاصة أنه من الأمور الغيبية .

و(أو) في قوله (ﷺ): (شفيعا أو شهيدا) اجتهد شراح الحديث في بيان معناها، ونفي القرطبي وغيُره أن معناها الشك ، فقال:" زعم قوم أن (أو) هنا شكٌّ من بعض الرواة، وليس بصحيح، فإنه قد رواه جماعةٌ من الصحابة ومِن الرواةِ كذلك علىٰ لفظ واحد، ولو كان شكًّا لاستحال أن يتفق الكلُّ عليه، وإنما أو هنا للتقسيم والتنويع ... ويكون المعنىٰ: إن الصابر علىٰ شدة المدينة صنفان؛ من يشفع له النبي (ﷺ) من العصاة، ومن يشهد له بما نال فيها من الشدَّة ليوفَّىٰ أجره. وشفاعته (ﷺ) وإن كانت عامة للعصاة من أمته إلا أن العصاة من أهل المدينة لهم زيادة خصوص منها، وذلك – والله تعالىٰ أعلم – بأن يشفع لهم قبل أن يُعذَّبوا بخلاف غيرهم، أو يشفع في ترفيع درجاتهم أو في السَّبق إلىٰ الجنة، أو فيما شاء الله من ذلك" (٢).

كما نفىٰ القاضي عياض معنىٰ الشك وزاد معنىٰ التقسيم وضوحا فقال : " و(أو) في قوله (ﷺ): (شفيعا أو شهيدا) ليست للشك، لاتفاق الرواة عليها ، فإما

---

(١) تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، جلال الدين السيوطي: (٢/ ٢٠١)، المكتبة التجارية الكبرىٰ – مصر، ١٣٨٩ – ١٩٦٩ هـ .

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣/ ٤٨٢ ، ٤٨٣)

أن يكون النبي (ﷺ) أعْلَم بهذه الجملة هكذا ، أو تكون [أو] للتقسيم، ويكون أهل المدينة صنفين؛ شهيداً لبعضهم، وشفيعاً لآخرين، إما شفيعاً للعاصين وشهيداً للمطيعين، أو شهيداً لمن مات في حياته وشفيعاً لمن مات بعده، أو غير ذلك ، وقد تكون " أو " هنا هي التي بمعنىٰ الواو، فيكون لأهل المدينة شهيداً وشفيعاً " [1] .

والتعبير بـ (يوم القيامة) مع أن هذا القيد كان يمكن الاستغناء عنه لأن شفاعته وشهادته معلوم أنها يوم القيامة ، ولكن ذكر هذا القيد فيه مزيد من بث البشرىٰ ، وتعظيم الثواب ، وتفخيم الأجر ؛ لأنه يكون في يوم تكون فيه النفوس في أمس الحاجة إلىٰ من يخفف عنها ويشفع لها ، وكأنه (ﷺ) أراد أن ينص علىٰ هذا القيد ليبرز أن ما يعانيه أهل المدينة من لأوائها وشدتها لا يساوي شيئا في جانب الثواب والكرامات التي أُعِدَّت لهم يوم القيامة وفيه : " تنبيه علىٰ أنه ينبغي للمؤمن أن يكون صابرا بل شاكرا علىٰ إقامته في المدينة ، ولا ينظر إلىٰ ما في عداها من النعم الصورية ؛ لأن العبرة بالنعم الحقيقية الأخروية " [2].

وقد أدرك صحابة النبي (ﷺ) والتابعون من بعدهم هذا المعنىٰ ، فحرصوا علىٰ رواية هذا الحديث، وتداوله، ومعرفته؛ لشدة وقعه في نفوسهم، ويشهد لذلك ما جاء في رواية أحمد (رحمه الله) من عبد الله بن مسلم الطويل صاحب المصاحف أن كلاب بن تليد أخا بني سعد بن ليث أنه بينا هو جالس مع سعيد بن المسيب جاء نافع بن جبير بن مطعم بن عدي يقول : إِنَّ ابْنَ خَالَتِكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ: أَخْبِرْنِي كَيْفَ الْحَدِيثُ الَّذِي كُنْتَ حَدَّثْتَنِي عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ؟ فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ: أَخْبِرْهُ أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ عُمَيْسٍ أَخْبَرَتْنِي، أَنَّهَا

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٤/ ٤٨٣)، وينظر: شرح النووي علي مسلم : ٥/ ٢٨.

(٢) مشكاة المصابيح مع شرحه مرقاة المفاتيح للمباركفوري : ٩/ ١٠٦٨ .

سَمِعَتْ رَسُولَ اللهِ (ﷺ) يَقُولُ: «لَا يَصْبِرُ عَلَىٰ لَأْوَاءِ الْمَدِينَةِ وَشِدَّتِهَا أَحَدٌ إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا ـ أَوْ شَهِيدًا ـ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١).

وتذوَّق قول نافع بن جبير لسعيد بن المسيب : " كيف الحديث الذي كنت حدثتني عن أسماء بنت عميس) تجد طعم الحفاوة بهذا الحديث باديا وجليا في كل لفظة في بنية تلك العبارة .

ثم تذوق قول سعيد له : (أخبره أن أسماء بنت عميس أخبرتني أنها سمعت ... الحديث)

ففوق ما فيه من الحرص علىٰ صحة الإسناد، فيه تأكيد علىٰ نقل الحديث والحفاوة به، وما ذاك إلا لعظم المعنىٰ الذي اشتمل عليه، وكأن الصحابة والتابعين (رضوان الله عليهم) استعظموا هذا الجزاء وبخاصة مع توفر أسباب الحياة ، وكثرة الخيرات التي ظهرت في المدينة فيما بعد مما ينفي عنها الجهد والمشقة واللأواء ، مع ثبوت الجزاء وبقائه .

(١) مسند أحمد : (٤٥/ ٢٤).

المقام التاسع: فضل بعض الأماكن فيها .

١- فضل الصلاة في مسجد المدينة :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) : أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) قَالَ: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلَّا المَسْجِدَ الحَرَامَ»(١).

والحديث يبرز خيرية الصلاة في مسجد المدينة، وأنها تفضل الصلاة في غيره بألف صلاة سوىٰ المسجد الحرام بمكة.

وهذه الخيرية التي أثبتها بيانه (ﷺ) لمسجد المدينة علىٰ غيره من المساجد تتماشي مع ما اقتضته سنةُ الله – تعالىٰ – في الكون؛ حيث فضَّل بعض الأزمنة علىٰ بعض، وبعض الأماكن علىٰ بعض، وبعض الرسل علىٰ بعض، وهذا فضل من الله (عز وجل) يعطيه لمن يشاء وما يشاء.

والطابع الذي غلب علىٰ بناء أسلوب هذا الحديث هو الأسلوب الخبري الخالي من التوكيد الذي جاء متناغما مع مقام إخباره (ﷺ) بتلك الخيرية، ومع خلو أذهان المخاطبين من مضمون الخبر.

والذي يلاحظ هو بناء هذا الهدي النبوي في جملة واحدة لا يكتمل معناها، إلا بالوقوف علىٰ نهايتها، وقد تعددت فيها القيود التي ارتبطت بكلٍ من طرفي الإسناد فيها (صلاة، وخير) وهي قيود مهمة وأصيلة في بيان المعنىٰ واكتمال الفائدة، وكان لها – أيضا – أثرها اللافت في إثارة التشويق في النفس لاكتمال المعنىٰ، والوقوف علىٰ مضمون الحديث ومقصده.

وأولُ ما يظهر من عناصر التشويق في الحديث هو بناؤه علىٰ لفظ المسند إليه (صلاة) بهذا التنكير والإبهام، وهذا من شأنه أن يبعث في النفس الإثارة

---

(١) صحيح البخاري كتاب التطوع، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم (١١٣٣):.

والتطلع إلىٰ ما يزيل هذا الإبهام ويوضحه، ومعلوم أن الأصل أن يكون المبتدأ معرفة؛ لأنه هو المحكوم عليه، ولا يحكم علىٰ مجهول، ولكن الذي سوغ الابتداء بها في بيان النبوة هنا هو ما وقع عقبها من القيد الواقع صفة لصلاة (في مسجدي) مما أضفىٰ عليها سمة الإفادة، يقول ابن مالك[1] :

ولايجـــوز الابتـــدا بالنكـــرة مـــالم تفـــد، كعنـــد زيـــد نمـــره

وقد جاء بدء الحديث بهذا التنكير (صلاة) متناغما مع بيان خيرية الصلاة في المدينة ؛ إذ لا يُقْصَدُ بها جنس الصلاة ، ولكن النبي (ﷺ) قصد بهذا التنكير معنىٰ الوِحدة ، أي الصلاة الواحدة في مسجد المدينة أكثر خيرية من ألف صلاة في غيره من المساجد ، وهذا مما يتناسب مع مقام الخيرية ، ولذلك كان حملُ هذا التنكير علىٰ إفادة معنىٰ الإفراد أولىٰ مما قيل أنه يفيد معنىٰ العموم ، أي : أي صلاة كانت فرضا أو نفلا ، ورُدَّ ذلك بأن النكرة في سياق النفي لا تعم ، وأجيب بأن ذلك قاعدة أغلبية ، وأيضا أن العموم فيها مستفاد من المعنىٰ والسياق [2].

ولذلك ذهب الشيخ النووي أن هذه الخيرية لا تختص بالفريضة ، بل تعم الفرض والنفل جميعا ، وضعف رأي من قال : إنه يختص بالفريضة بأن هذا يخالف إطلاق ما جاء في هذا الحديث وغيره من الروايات الأخرىٰ [3]. كما

---

(١) تحصل الإفادة بعدة أمور فصلها النحاة، ينظر إليها في شرح الأشموني علىٰ ألفية ابن مالك (١/ ١٩٢) ، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة: الأولىٰ ١٤١٩هـ-١٩٩٨م. وينظر أيضا : الكافية في علم النحو، لابن الحاجب (ص: ١٥) تحقيق: الدكتور صالح عبد العظيم الشاعر، الناشر: مكتبة الآداب – القاهرة، الطبعة: الأولىٰ، ٢٠١٠ م.

(٢) ينظر : الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم : ١٥/ ١٧٢ .

(٣) ينظر : شرح النوي علىٰ مسلم : ٥/ ٥٧ .

أُثْبِتت تلك الخيرية للصلاة مطلقا " سواء كانت صلاة جماعة أو منفرد) [1]، وعلىٰ هذا : فمعنىٰ الوحدة مفاد من تنكير(صلاة)، ومعنىٰ العموم الشامل للفريضة والنفل ،والجماعة والمنفرد، مفاد من السياق ومضمون الحديث .

ويضاف إلىٰ ما سبق من عطاء هذا التنكير في (صلاة)ما أضفاه من استشعار نفس المتلقي وبعث معاني التفخيم والتعظيم فيها لهذه الصلاة قبل أن يقف علىٰ الخبر، وبخاصة أن اللفظة(صلاة) تعد من أهم ركائز هذا الدين ، ودعائم بنيانه بعد التوحيد ، وهذا مما يزيد إثارة نفس المتلقي وتطلعه نحو معرفة الخبر المسند إليها ، فإذا ما وقف علىٰ الخبر تمكن في نفسه فضل تمكَّن ، وكان باعثا له علىٰ الحرص علىٰ تحقيق تلك الخيرية والمداومة عليها ، ولذلك ذكر العلماء أن الحديث فيه " حث علىٰ الحض والندب علىٰ قصده والصلاة فيه والزيارة له " [2].

وعلىٰ هذا فبدءُ الحديث بتلك اللفظة المنكرة (صلاة) يعكس تكثيفا بلاغيا حيًّا لمعانٍ غزيرة متعددة لم تكن لتُدرك لو ابتدأ النبي (ﷺ) هذا الهدي علىٰ الأصل في البناء اللغوي من الابتداء بالمعرفة فقال : الصلاة في مسجدي ... الحديث.

وهذا من احتفاء بيانه (ﷺ) بإثبات تلك الخيرية للصلاة في مسجد المدينة، وهذا القيد (في مسجدي) والذي دفع ما يحمله تنكير (صلاة) من إبهام فيه "

---

(١) شرح سنن أبي داود ، عبد المحسن بن حمد بن عبد المحسن بن عبد الله بن حمد العباد البدر : ٢/ ٤٥٥ ، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net

[الكتاب مرقم آليا في المكتبة الشاملة ، ورقم الجزء هو رقم الدرس – ٥٩٨ درسا]

(٢)شرح صحيح البخاري لابن بطال : (٤/ ٥٥٧).

دليل علىٰ أن المضاعفة في المدينة مختصة بالمسجد النبوي، لا لكل المدينة "[1] ويزداد بيانه(ﷺ) تحديدا للمعنىٰ ، وتدقيقا بالغا لدفع أي لبس ، وبخاصة أن الأمر يتعلق بخصوصية بالغة ستظل باقية لمسجد المدينة حتىٰ قيام الساعة ، بمراعاة تلك الإضافة في (مسجدي) لضميره (ﷺ) وذلك للتخصيص ، أي : في مسجدي هذا دون غيره من مساجد المدينة كقباء وغيره ، وفي تلك الإضافة ما يُشعر بعليةً تفضيل تلك الصلاة، وأنها إنما استمدت ذلك ببركة نسبة هذا المسجد لرسول الله (ﷺ).

وقوله(ﷺ): (هذا) عقب هذا القيد بدل من (مسجدي) جيء به لإرادة تأكيد هذا التخصيص وكأنه (ﷺ) قال : هذا دون غيره ، واستدل الشيخ النووي بهذا القيد (هذا) علىٰ إثبات تلك الخصوصية لمسجده (ﷺ) الذي كان يصلي فيه في زمانه دون ما زيد عليه فقال : "يَنْبَغِي أَنْ يَحْرِصَ الْمُصَلِّي عَلَىٰ الصَّلَاةِ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ فِي زَمَانِهِ (ﷺ) دُونَ مَا زِيدَ فِيهِ بَعْدَهُ لِأَنَّ التَّضْعِيفَ إِنَّمَا وَرَدَ فِي مَسْجِدِهِ وَقَدْ أَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ هَذَا بِخِلَافِ مَسْجِدِ مَكَّةَ فَإِنَّهُ يَشْمَلُ جَمِيع مَكَّة"[2]، ورد ذلك : "بأن الْإِشَارَةَ فِي الْحَدِيثِ إِنَّمَا هِيَ لِإِخْرَاجِ غَيْرِهِ مِنَ الْمَسَاجِدِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَيْهِ (ُ) وَبِأَنَّ الْإِمَامَ مَالِكًا سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَأَجَابَ بِعَدَمِ الْخُصُوصِيَّةِ وَقَالَ لِأَنَّهُ (عليه السلام) أَخْبَرَ بِمَا يَكُونُ بَعْدَهُ وَزُوِيَتْ لَهُ الْأَرْضُ فَعَلِمَ بِمَا يَحْدُثُ بَعْدَهُ

---

(١)منحة العلام شرح بلوغ المرام ، عبد الله بن صالح بن عبد الله الفوزان: (١/ ٢٧٨) بترقيم المكتبة الشاملة ، شبكة نور الإسلام

http://www.islamlight.net

(٢)فتح الباري لابن حجر (٣/ ٦٦) ، وينظر : عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني : ٧/ ٢٥٦ .

وَلَوْلَا هَذَا مَا اسْتَجَازَ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ أَنْ يَسْتَزِيدُوا فِيهِ بِحَضْرَةِ الصَّحَابَةِ لَمْ يُنْكَرْ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ " [1].

وأرىٰ أن هذا هو الصواب ، وأن الزيادة في المسجد تأخذ حكم أصل المسجد ، ويترتب عليها من الأحكام ما يترتب لأصل المسجد ، وذلك فضل من الله – تعالىٰ – ، ولا يضيق متسع .

وإضافة لفظ (مسجدي) إلىٰ ضميره (ﷺ) استدل به العلماء علىٰ جواز إضافة المساجد إلىٰ من بناها وعمرها [2] ، ولا يتعارض ذلك مع إضافتها لله ، كما جاء في العديد من الآيات ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [3] ؛ لأن" المساجد وإن كانت لله ملكا وتشريفا فإنها قد تنسب إلىٰ غيره تعريفا فيقال: مسجد فلان"[4]، والآية الكريمة " نزلت في النهي عن أن يشرك بالله في المساجد في عبادته غيره، كما يفعل أهل الكتاب في كنائسهم وبيعهم" [5].

وبعدما هيأ النبي (ﷺ) النفوس، وأثار فيها بواعث المعرفة والتطلع إلىٰ الخبر جاء في قوله : (خير من ألف صلاة فيما سواه)، وقد جاء هو الآخر يحمل فيضا بالغا من التشويق بما جاء عقبه من قيود مهمة، تُعَدَّ تتمةً لمعنىٰ هذا الخبر، ولا يتضح مضمونه كاملا إلا بالوقوف عليها ، وذلك لأن الخيرية ليست مطلقة ،

---

(١) ينظر : مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح : ٢/ ٥٨٥ . وتحفة الأحوذي (٢/ ٢٣٧)

(٢) فتح الباري لابن رجب : ٢/ ٣٦١ .

(٣) سورة الجن:١٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١٩/ ٢١ ، ت: أحمد البردوني ، إبراهيم أطفيش ، نشر دار الكتب المصرية ، القاهرة، ط ٢ ، ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤ م .

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب الحنبلي: ٢/ ٣٦١ . ت: أ/ محمود بن شعبان بن عبد المقصود وآخرون ، مكتبة الغرباء الأثرية ، المدينة المنورة ، ط الأولىٰ ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م .

بل محددةٌ بما بعد أفعل التفضيل (خير) بما أثاره هو الآخر من التشويق إلىٰ معرفة المفضل عليه (من ألف صلاة فيما سواه)، وكل هذا تهيئة بليغة منه (ﷺ) كي يقر الخبر في الذهن ، ويرسخ في وجدان كل متلق ، مما يحثه علىٰ الحرص علىٰ تحقيق تلك الخيرية ، وعدم تفويته علىٰ نفسه هذا الثواب العظيم الذي يفوق ألف صلاة (فيما سواه) أي : فيما سوىٰ مسجده (ﷺ) بهذا العموم والشمول الذي أفاده التعبير بالاسم الموصول (ما)، أو أفاده التعريف بأل كما جاء في رواية مسلم: ((فِيْ غَيْرِهِ مِنَ المَسَاجِدِ)) [1].

والتعبير بلفظ الخيرية يبعث في النفس البِّشر والحث نحو تحصيل هذا الثواب بخلاف ما لو قيل : (تزيد) مثلا ، كما أنها صريحة في الزيادة علىٰ الألف ، ولا تعدِلُها فقط ، ومناط تلك الخيرية ، كما يقول النووي إنها " ترجع إلىٰ الثواب ، فثواب الصلاة فيه تزيد علىٰ ثواب ألفٍ فيما سواه ، ولا يتعدىٰ ذلك إلىٰ الإجزاء عن الفوائت، حتىٰ ولو كان عليه صلاتان فصلَّىٰ في مسجد المدينة صلاة لم تجزئه عنهما ، وهذا لا خلاف فيه " [2].

وعلىٰ هذا ففي الحديث حذف بليغ، وقد جاء في موطنين : الموطن الأول في قوله (صلاة) ، والتقدير : ثواب صلاة ، والموطن الثاني : خير من ثواب ألف صلاة ، وقد حذف في الموطنين للعلم به ، وتصفية العبارة ، وإحكام البيان بحذف ما يُفهم من السياق ، فضلا عن دوره في إذكاء دواعي التشويق في نفس المتلقي لمعرفة وجه تلك الخيرية ، وهذا مما يتناغم مع السمت العام في بناء الحديث علىٰ أسلوب التشويق والإثارة تمكينا للمعنىٰ في النفس، وترسيخا للخبر في الوجدان.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة، رقم:(١٣٩٤).

(٢) شرح النووي علىٰ مسلم : ٥/ ٥٧ .

وتتصاعد معاني الإثارة والتشويق بقوله (ﷺ) في ختام بيانه إلا المسجد الحرام فالنفس المتلقية أضحت علىٰ معرفة تامة بالخبر ، ولكنها تفاجأ بهذا الاستثناء ، وكأنه طرقة تنبيه جديرة لمعنىٰ مهم ينبغي الالتفات إليه ، والمعنىٰ : " فإنها – أي الصلاة – فيه أفضل منها في مسجدي " [1].

وهذا الاستثناء ذكر فيه العلماء : أنه يجوز أن يكون المراد إلا المسجد الحرام فإنه مساو لمسجد المدينة أو فاضلا أو مفضولا ، ورجح الأول وهو المساواة في الخيرية ، لأنه لو كان فاضلا أو مفضولا لم يعلم مقدار ذلك إلا بدليل بخلاف المساواة [2].

والذي عليه الجمهور أن الصلاة في المسجد الحرام أفضل ، وقد رجح ذلك ابن حجر ، والشيخ النووي ، والعيني ، مستدلين بما أخرجه الإمام أحمد ، فعن عبد الله بن الزبير قال : قال رسول الله (ﷺ) : ((صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَسَاجِدِ إِلا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَصَلاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ صَلاةٍ فِي هَذَا)) [3].

---

(١) فيض القدير للمناوي : ٤/ ٢٩٨ .

(٢) ينظر: فتح الباري لابن حجر (٣/ ٦٧)، وينظر : شرح الزرقاني علىٰ موطأ الإمام مالك : ٢/ ٣ ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٤١١ هـ ، وينظر : كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، للشنقيطي (١١/ ١٣٩)، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

(٣) ينظر : فتح الباري لابن حجر : ٣/ ٦٦ ، وينظر : شرح النووي علىٰ مسلم : ٩/ ٦٦٣ ، وينظر : عمدة القاري : ٧/ ٢٥٦ . والحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل حديث عبد الله بن الزبير بن العوام رضىٰ الله تعالىٰ عنه، ٤/ ٤، رقم(١٦١٦٢) تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم.

٢- فضيلة ما بين بيته ومنبره (ﷺ).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه)، عَنِ النَّبِيِّ (ﷺ) قَالَ: «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ، وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي»[(١)].

ومقام الحديث بيانٌ للفضل العظيم لهذا المكان المنحصر بين بيته (ﷺ) ومنبره الشريف ، وفي ذلك لفت لأنظار المسلمين لهذا المكان ، ومعرفة منزلته عند الله – تعالىٰ – وما له من خصوصية بالغة يمتاز بها عن باقي أماكن الأرض، قال عياض : " استدل العلماء بالحديث علىٰ أن تلك البقعة أفضل البقاع علىٰ الأرض حتىٰ من مكة " [(٢)]، بل هناك من توسع فذكر أن الحديث " فيه دلالة قوية علىٰ فضل المدينة علىٰ مكة ؛ إذ لم يثبت في خبر عن بقعة أنها من الجنة إلا هذه البقعة المقدسة"[(٣)].

وإن كنت أرىٰ أن الحديث وإن أثبت تلك الفضيلة لهذه البقعة، وفي ذلك ما يشعر بأفضليتها علىٰ بقاع الأرض ، إلا أنه ليس نصا في تفضيل المدينة علىٰ مكة، والتفضيل بينهما محل خلاف بين العلماء [(٤)] بعيدا عن مقام تلك الدراسة .

وأسلوب الحديث كسابقه، أسلوب خبري يتناسب مع مقام الإخبار بعظم هذا المكان ، وقد ساقه النبي (ﷺ) بأسلوب خال من التوكيد لخلو أذهان

---

(١)صحيح البخاري كتاب التطوع، باب فضل ما بين القبر والمنبر، رقم:(١١٣٨)

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري : ١١/ ٤٧٤ .

(٣)شرح الزرقاني علىٰ موطأ مالك : ٢/ ٦ .

(٤) ينظر إليه في: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٤/ ٥٤٣) ، طرح التثريب في شرح التقريب للإمام أبي الفضل العراقي : (٦/ ٥٠) الطبعة المصرية القديمة – إكمال المعلم بفوائد مسلم (٤/ ٤٧٩).

المخاطبين من مضمونه ، ودلالة علىٰ أن هذا الإخبار منه حقيقة مؤكدة لا تحتاج إلىٰ توكيد .وهذا يستشعره كل من زار هذا المكان ، فحال واقع المكان ذاته يؤكد المعنىٰ .

وقد انتظم الحديث في جملتين، الأولىٰ تبين خصوصية هذا المكان، والثانية: " ومنبري علىٰ الحوض) تبين خصوصية لمنبره الشريف ذاته .

وأسلوب التشويق هو السمة الغالبة علىٰ بناء الجملة الأولىٰ، فقوله(ﷺ): (ما بين بيتي ومنبري) يحدث في النفس تشويقا لمعرفة الخبر، ومما يزيد من تطلع النفس وإثارتها نحو الخبر – أيضا – التعبير بلفظ المسند إليه (ما) الموصولة بما فيها من إبهام وغموض يدفع النفس إلىٰ الكشف عن بيانه وإيضاحه ، والخبر هنا جدير بأن تُشَوَّق النفوس إليه ، وتتهيأ للوقوف عليه ؛ لأنه إخبار عن بقعة من بقاع الأرض بأنها روضة من رياض الجنة، ومجيء هذا الخبر بعد هذا التشويق تمكين له في نفوس السامعين، يتناسب مع عظمة المكان وخصوصيته .

والإضافة في (بيتي ومنبري) إلىٰ ضميره (ﷺ) فيها تشريف وتعظيم بنسبتهما للنبي (ﷺ) وهذا من دواعي حثه لأمته وحرصه البليغ (ﷺ) علىٰ دفعهم لزيارة هذا المكان المبارك.

وبعد أن أثار النبي(ﷺ)النفوس وشوقها ولفت أنظارها نحو معرفة الخبر، جاء في قوله (روضة من رياض الجنة)، وللعلماء أقوال ثلاثة في المراد بتلك الجملة :

١-قيل هو تشبيه بغير أداة، ووجه الشبه: نزول الرحمة وحصول السعادة بما يحصل من ملازمة حلق الذكر ، ولا سيما في عهده(ﷺ).

٢-وقيل المعنىٰ: أن العبادة فيها تؤدي إلىٰ الجنة، فيكون مجازا، وهذا من باب تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه ويتولد عنه.

٣-أن يحمل علىٰ ظاهره، والمراد أنه روضة حقيقة، وذلك بأن ينتقل هذا الموضع بعينه في الآخرة إلىٰ الجنة .

وهذه الأقوال الثلاثة ذكرها ابن حجر وعقب عليها بقوله: " وهي علىٰ ترتيبها هذا في القوة"[1]، وهذا يعني أن أقوىٰ الوجوه عند ابن حجر هو حمل كلامه (ﷺ) علىٰ التشبيه ، وإن كنتُ أرىٰ أن بيانه (ﷺ)وإن كان يحتمل هذه الوجوه الثلاثة ، إلا أن الأوْلىٰ في مثل هذه الصور أن تُحمل علىٰ حقيقتها ، فيكون هذا المكان روضة من رياض الجنة حقيقة، وينقل إليها من دار الدنيا إلىٰ دار الآخرة .

وهذا مما يتناسب مع ما ينبغي أن يكون عليه العبد من الإيمان المطلق بالغيب، والتسليم بمنطوق بيانه (ﷺ)؛ لأنه وحي من الله (ﷻ)، كما أن ما لا يحتاج إلىٰ تأويل أولىٰ بالقبول مما يحتاج إليه، وهذا الوجه هو ما ذهب إليه كثير من العلماء ، قال عياض : " وقد حمل كثير من العلماء هذا الحديث علىٰ ظاهره فقال : والأرض تنقل ذلك ، الموضع بعينه إلىٰ الجنة " [2].

وهذا فيه تشريف لنبينا (ﷺ) وبيان لمكانته العظيمة، ودرجته الرفيعة عند ربه – سبحانه – بأن يُنقل جزء من بقاع الأرض كان –صلوات الله وتسليماته عليه –

---

(١)فتح الباري لابن حجر : ٤/ ١٠٠، وينظر أيضا إلىٰ هذه الأقوال : في شرح صحيح البخاري لابن بطال : ٣/ ١٨٣ ، وينظر : عمدة القاري شرح صحيح البخاري : ١١/ ٤٧٤ . وينظر : شرح النووي علىٰ مسلم : ٥/ ٤٥ .

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٧/ ٢٦١).

يحرص علىٰ أن يعبد ربه، ويتذلل إليه ويداوم الجلوس فيه ، وظلت أمته حريصه علىٰ هذا المكان من بعده أن يُنْقَل إلىٰ دار الآخرة ويُصَيِّره الله بقدرته إلىٰ روضة من رياض جنانها .

والمهم أن اللافت للنظر أن النبي (ﷺ) لم يجعل هذه البقعة المباركة مجرد روضة في الجنة، فلم يكن بيانه : (ما بين بيتي ومنبري روضة في الجنة) ، وكذلك لم يجعلها روضة من روضات الجنة بالتعبير بجمع الكثرة (روضات) كشأن التعبير القرآني في قوله – تعالىٰ – : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَٰتِ ٱلۡجَنَّٰتِۖ ﴾[1] ، بل جعلها من رياض الجنة ، هكذا مؤثرا جمع القلة ، مما يعني أن تلك البقعة في أخص الخصوص من بقاع الجنة، وفي أعلىٰ مراتبها ، وأجل منازلها ، وهذا مما يتناغم مع ما يشيعه هذا التنكير في (روضة) من معاني التفخيم والتعظيم لها ، بينما كان التعبير بجمع الكثرة (روضات) في البيان القرآني مما يتناسب مع كثرة منازل أهل الجنة وتفاوت درجاتهم فيها، تبعا لتفاوت صالح أعمالهم ، فكثرت الروضات لتعدد المنازل وكثرتها أيضا .

ومن الوجوه البلاغية – أيضا – ما يتبدىٰ في بيانه (ﷺ) من وجوه التناسب اللفظي والمعنوي، فالتناسب اللفظي يظهر جليا في مراعاة النظير البادية في مجمل الألفاظ التي اشتمل عليها هذا البيان مثل:(بيتي – منبري – روضة – الجنة) ، وكلها ألفاظ داعية إلىٰ سكينة النفوس واطمئنان القلوب وراحة الأجساد ، وهدوء الأبدان يستشعر تلك المعاني كل من حظي بزيارة هذه البقعة

(١) سورة الشورىٰ:٢٢.

المباركة، ولعل الإحساس بتلك المعاني هي سر تدافع الزائرين لمسجد النبي(ﷺ) علىٰ هذا المكان بالآلاف كل يوم ، وحرصهم الشديد علىٰ الصلاة والذكر والمكث فيه، وذلك لاستشعارهم بعظمة هذا المكان، وإدراكهم لخصوصيته البالغة عند رسول الله (ﷺ).

كما لا نغفل هذا التناسب المعنوي البادي في الحديث ، فهذه البقعة التي كانت محل إخباره (ﷺ) تحفل بالطائعين، ودموع التائبين ، وتبتل الخاضعين ، وحشرجة المنكسرين ، وتمتلئ بالذاكرين بشتىٰ وجوه الذكر من الصلاة، وتلاوة القرآن، والتسبيح، والتحميد وغير ذلك ، ومجالس الذكر عموما هي باب العروج لتحصيل أعلىٰ مراتب الجنان ، وتغشاها السكينة والطمأنينة ببركة حفاوة الملائكة بها ـ وهذا مما يتناغم مع إخباره (ﷺ) عن تلك البقعة بأنها (روضة من رياض الجنة) ، وقد ربط (ﷺ) بين مجالس الذكر ورياض الجنة صراحة في بيان آخر فقال : ((إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: حِلَقُ الذِّكْرِ))[1] : " فجعل مجالس الذكر في شرفها وفضلها بمنزلة رياض الجنة، وجعل ذاكر الله فيها كالراتع في رياض الجنة" [2].

ولا نغفل من صور البديع جناس الاشتقاق بين (روضة) و (رياض) وقد أشاع ضربا عذبا من الإيقاع، جذب النفوس نحو المعنىٰ ولفتها إليه ، وهذا أدعىٰ إلىٰ تمكين مقصوده (ﷺ) في النفوس، واستدعاء حرصها إلىٰ زيارة تلك البقعة المباركة .

---

(١) سنن الترمذي، كتاب الدعوات عن رسول الله (ﷺ)، رقم: (٣٥١٠) قال الشيخ الألباني: حسن.

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال : ٣/ ١٨٣ .

وإذا كان النبي (ﷺ) جعل منبره الشريف حدا من حدود تلك البقعة في الجملة الأولىٰ من بيانه فإننا نجده يفرده بميزة تخصه وحده في الجملة الثانية فيقول: (ومنبري علىٰ الحوض) وهذه الجملة استئنافية قصد بها النبي (ﷺ) بيان تلك المنزلة العظيمة التي يختص بها منبره (ﷺ) في الآخرة حيث يكون منصوبا علىٰ الحوض ، وهذا الاستئناف الذي أفادته الواو في بدء تلك الجملة مما يتناغم مع هذا المعنىٰ العظيم ، ولذا قصد النبي (ﷺ) أن يشبع هذا الجزء من المعنىٰ بهذا الاستئناف الجديد .

ومن الممكن حمل تلك الواو علىٰ معنىٰ الحالية ، أي : والحال أن منبري علىٰ الحوض ، وفيه مزيد حفاوة ببيان حال منبره (ﷺ) في الجنة ، وعظم موقعه .

واختلف العلماء في المراد بمنبره (ﷺ) في الحديث : فقيل : المراد به منبره (ﷺ) الذي كان في الدنيا ، وقيل : أن له علىٰ حوضه منبرا آخر غير ذلك أعظم وأشرف منه ، والقول الأول هو الذي استظهره أكثر العلماء [1] ، وهذا القول أراه هو الأقوىٰ والأولىٰ بالقبول؛ لما فيه من التسليم المطلق بمنطوق كلامه (ﷺ) وبخاصة أن النبي (ﷺ) أعاده بنفس لفظه في الجملة الأولىٰ في قوله : (ما بين بيتي ومنبري)، مما يؤكد أن المراد به في الجملة الثانية هو عينه في الجملة الأولىٰ ، ولو أنه (ﷺ) قال : (ولىٰ منبر علىٰ الحوض) مثلا؛ لآذن باختلاف المنبرين ، ولذا كان الأولىٰ هو حمل الكلام علىٰ ظاهره دون تأويل، والمهم أن هذه الجملة فيها تناسب واضح وبيِّنٌ بين حال منبره (ﷺ) في الدنيا ، وحاله في الآخرة، فإذا كان النبي (ﷺ) وهو علىٰ منبره في الدنيا مصدرا لهداية الناس وإرشادهم،

---

(١) ينظر : شرح صحيح البخاري لابن بطال: ٣/ ١٨٣ ، إكمال المعلم شرح صحيح مسلم: ٤/ ٢٦٤ ، فتح الباري لابن حجر: ٤/ ١٠٠ ، عمدة القاري شرح صحيح البخاري: ١١/ ٤٧٤ .

ومحطا لأنظارهم ومتعلقهم في الدنيا، فإنه يكون عليه في الآخرة في منزلة عالية لإروائهم وغوثهم في لحظة يكونون فيها أحوج ما يكونون إلىٰ الري والإغاثة.

وإذا كان النبي (ﷺ) حدَّد في الجملة الأولىٰ مكان البقعة التي يقصدها بدقة بالغة حتىٰ لا يدع في تحديدها مجالا للتأويل أو الاختلاف، فإنه يحدد – أيضا – مكان المنبر بأنه (علىٰ الحوض) هكذا بحرف الاستعلاء ، مما يعني أنه ليس بجانب الحوض، أو في الحوض، وإنما هو علىٰ الحوض ، وهذا مما يبرز المنزلة العظيمة والدرجة الرفيعة التي يكون فيها نبينا الكريم في الجنة ، وفي هذا ما فيه من مزيد التكريم له (ﷺ) ولأمته .

وتتجلَّىٰ – أيضا – عظمة منبره (ﷺ) إذا وقفنا علىٰ عظمه الحوض ذاته، وقد أخبر النبي (ﷺ) عن أوصافه فقال : ((حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الوَرِقِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، فمَن شَرِبَ منه فلا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا))[1].

هذا والله أعلىٰ وأعلم .

(١)صحيح مسلم، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا (ﷺ) وصفاته، رقم: (٢٢٩٢).

الخـــاتمة

أحمد الله – تبارك وتعالىٰ – وأصلي وأسلم علىٰ خاتم أنبيائه ورسله، نبينا محمد (ﷺ) وعلىٰ آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، وجاهد جهاده إلىٰ يوم الدين.

وبعـــــــــد،،

فبعد تلك المعايشة الممتعة في رحاب أحاديثه(ﷺ) المتعلقة بفضائل المدينة في الصحيحين، يطيب لي أن أسجل أهم النتائج التي أسفرت عنها هذه الدراسة المتواضعة، وذلك فيما يأتي:

١-كان لكل حديث طابع بلاغي خاص يميزه، وقد جاء متناغما مع السياق والمقام الذي أورد فيه النبي (ﷺ) كل فضيلة من تلك الفضائل.

٢-حرص بيان النبوة غالبا علىٰ إبراز تلك الفضائل في ثوب الاسمية، دلالة علىٰ ثبوتها دائما، وإعطائها طابع البقاء والاستمرارية، فلا تقتصر تلك الفضائل علىٰ وجودها في زمنه (ﷺ)، بل تمتد حتىٰ قيام الساعة.

٣-غلب الأسلوب الخبري علىٰ معظم تلك الأحاديث، تلاؤما مع إخباره (ﷺ) بتلك الفضائل، ولم يظهر الأسلوب الإنشائي باديا إلا في مقام دعائه (ﷺ) للمدينة بالبركة، فكانت روح الدعاء هي المهيمنة في هذا المقام علىٰ جميع جمل الحديث وتراكيبه، كما عمد النبي (ﷺ) إلىٰ أسلوب القسم بتلك الصيغة اللافتة (والذي نفسي بيده)، وذلك في مقام تحذيره من مغبة عدم الاعتداد بخيرية البقاء في المدينة، والرغبة في الخروج منها، وذلك في قوله (ﷺ): (والذي نفسي بيده لا يخرج منهم أحد رغبة عنها إلا أخلف الله فيها خيرا منه ".

٤-ظهر الإطناب بصورة واضحة في مقام دعائه (ﷺ) للمدينة بالبركة، وقد جاء في صورة ذكر العام بعد الخاص والعكس، وقد جاء متناغما مع مقام الدعاء، ورغبته العميقة (ﷺ) في شمولية الدعاء لكل ما يتعلق بالمدينة .

٥-بدا حسن توسله (ﷺ) في الدعاء للمدينة بالبركة؛ حيث أسلوب التكرار؛ والتمهيد لمطلوبه بذكر منازل القربىٰ ، أدبا بالغا وتواضعا جما منه (ﷺ) في تلبية مطلوبه من ربه (ﷻ).

٦-بدت دقته (ﷺ) في تحريم المدينة؛، حيث اعتمد علىٰ أسلوب القياس عن طريق تشبيه تحريمه لها بتحريم إبراهيم (عليه السلام) لمكة ، وفي هذا وطاء وتمهيد جيد لإعلان هذا التحريم ، كما يحمل فيضا بالغا من الإجلال والتقديس لتلك الحرمة .

٧-ظهرت الصورة التشبيهية في مجمل الأحاديث المتعلقة بإبراز تلك الفضائل، وقد جاءت متناغمة مع رغبته (ﷺ) في توضيحها وتقريرها وتأكيدها .

٨-تعانقت بعض الصور البيانية الأخرىٰ مع الصورة التشبيهية في بعض المقامات ، فتعانق المجاز المرسل مع التشبيه في قوله (ﷺ):(ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم (عليه السلام) لمكة.

وتعانقت الاستعارة في الفعل (يأزر) مع الصورة التشبيهية في مقام : (أروز الإيمان إلىٰ المدينة)، كما تعانقت الكناية في لفظة (شرارها) مع التشبيه في قوله (ﷺ): (لا تقوم الساعة حتىٰ تنفي المدينة شرارها ، كما ينفي الكير خبث الحديد ... الحديث)).

٩-بدا أسلوب القصر جليا في بعض المقامات ، وغلب طريق (النفي والاستثناء) علىٰ مجملها ، وكان وسيلة قوية في تأكيد مقصوده (ﷺ).

١٠- ظهر أسلوب الشرط باديا في مقام تحذيره (ﷺ) من إرادة المدينة بالسوء والشر ، أو إحداث الحدث فيها أو إيواء محدثه ، وفي هذا ردع قوي ، وزجر بالغ من مغبة مخالفة ما حذر منه (ﷺ)، ومن هنا استدل العماء علىٰ أن

إحداث الحدث في المدينة يعد من الكبائر ، كما ذكروا أن هذا الجزاء الذي أثبته (ﷺ) لمن يريد أهل المدينة بالسوء وهو الإهلاك والمحو والإبادة ، لم يرد نظيره لبقعة سوىٰ المدينة .

١١- بدت دقة بيانه (ﷺ) في إيثار بعض الألفاظ دون غيرها ، وقد جاءت متناغمة مع السياق والمقام ، وكاشفة في دقة عن مقصده (ﷺ) ، مثل التعبير بالفعل (يأرز) الذي جاء ملائما مع هيئة الحية عند رجوعها إلىٰ سكنىٰ المدنية ، وكذلك التعبير بلفظ (لأواء) في الحث علىٰ الصبر علىٰ سكنىٰ المدينة وتحمل وطأة وظروف العيش فيها ، ومثل التعبير بالفعل (أخلف) في قوله (ﷺ) : (إلا أخلف الله فيها خيرا منه) وكذلك الفعل (ترجف) عند تصوير محاولة اقتحام الدجال للمدينة في آخر الزمان ، وغير ذلك من الألفاظ والصيغ .

وفي الختام أسأل الله (ﷻ) أن يرزقني زيارة مدينته (ﷺ) وأن يهيئ لي وللقارئ الكريم سكناها والعيش في رحابها ، والتنعم بزيارة قبره (ﷺ) وأن يمن علينا بالجلوس في روضته الشريفة ، وأختم كلامي بدعاء سيدنا عمر (رضي الله عنه) بقوله: ((اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك (ﷺ)))[1].

وصلِّ اللهم علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم .

---

(١)صحيح البخاري أبواب فضائل المدينة، باب كراهية النبي صلىٰ الله عليه وسلم أن تعرىٰ المدينة، رقم(١٧٩١).

المصادر والمراجع

(١) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي ، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٨ هـ -١٩٨٨ م.

(٢) أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية ، د/ صباح دراز ، ط أولىٰ، مطبعة الأمانة.

(٣) أساليب النفي في القرآن، د/ أحمد ماهر البقري، دار المعارف- ط ١، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

(٤) استثمار الأسلوب العدولي في تذوق النص الأدبي ، د/ عيد محمد شبايك ، مجلة كلية الآداب – جامعة المنوفية – العدد ٨ يناير ٢٠٠٤ م .

(٥) أسرار البلاغة، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢ هـ -٢٠٠١ م.

(٦) أسرار الحروف ضمن أصول اللغة العربية ، أحمد زرقه ، ط: دار الحصاد للنشر والتوزيع ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٩٣ م.

(٧) أسماء الله الحسنىٰ دراسة في البنية والدلالة، د / أحمد مختار عمر، عالم الكتب.

(٨) الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ وصفاته العلىٰ، للإمام / شمس الدين أبي عبد الله القرطبي، ط١ ، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م .

(٩) الإعجاز البلاغي ، دراسة تحليلية لتراث أهل العلم ، د / محمد أبو موسىٰ ، مكتبة وهبة – ط ٢ ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

(١٠) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، للأستاذ / مصطفىٰ صادق الرافعي ، ط ١ ، دار المنار – مكتبة فياض – ط الأولىٰ – ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م .

(١١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض ، تحقيق: الدكتور يحْيَىٰ إِسْمَاعِيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م.

(١٢) أوضح المسالك إلىٰ ألفية ابن مالك لابن هشام الأنصاري، دار الجيل – بيروت – لبنان – ط ٥ ، ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م .

(١٣) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، تعليق : د / محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل – بيروت – ط٣ ، بدون .

(١٤) بدائع الفوائد ، لابن قيم الجوزية، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا وآخرون، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز – مكة المكرمة ، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦ – ١٩٩٦ م.

(١٥) البرهان في علوم القرآن للزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة التراث ، القاهرة، بدون .

(١٦) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن للزملكاني، ت : د/ خديجة الحديثي ، د/ أحمد مطلوب ، مطبعة العاني ، بغداد ، ط ١ ، ١٣٩٤ هـ – ١٩٧٤ م .

(١٧) البلاغة العربية أسسها وعلومها، وفنونها ، د/ عبد الرحمن حبنكة الميداني ، دار القلم – دمشق – ط ١ ، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م.

(١٨) بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين ، د / عودة خليل عودة ، دار البشير – الأردن – ط الثانية ، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م.

(١٩) بهجة النفوس شرح مختصر صحيح البخاري ، ابن حمزة الأندلسي – دار الجيل – بيروت – ط ٣ ، بدون .

(٢٠) تاج العروس من جواهر القاموس ، للزَّبيدي، تحقيق :مجموعة من المحققين، دار الهداية.

(٢١) التحرير والتنوير ، للطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٨٤ هـ

(٢٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري ، تحقيق: عبد الوهاب بن عبد اللطيف، المكتبة السلفية، المدينة المنورة ، الطبعة الثانية ١٣٨٣ هـ – ١٩٦٣ م .

(٢٣) التكرار بلاغة، د/ إبراهيم الخولي ، إصدار الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٩٣ م .

(٢٤) تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، جلال الدين السيوطي، المكتبة التجارية الكبرى – مصر، ١٣٨٩ – ١٩٦٩ هـ .

(٢٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، ت: أحمد البردوني ، إبراهيم أطفيش ، نشر دار الكتب المصرية ، القاهرة، ط ٢ ، ١٣٨٤ هـ – ١٩٦٤ م .

(٢٦) الجني الداني في حروف المعاني للمرادي ، ت: فخر الدين قباوة ، أ/ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط أولى ، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م .

(٢٧) حاشية الصبان على شرح الأشموني، تحقيق : طه عبد الرءوف سعد – المكتبة التوفيقية – ط ١ ، بدون .

(٢٨) حاشية عبد الحكيم على المطول، مطبعة محرم أفندي، ١٣٠٦ هـ .

(٢٩) الحديث النبوي الشريف (مصطلحه – بلاغته – كتبه) ، د/ محمد الصباغ ، ط المكتب الإسلامي ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م .

(٣٠) الخصائص، لابن جني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الرابعة.

(٣١) خصائص التراكيب ، د / محمد أبو موسىٰ، مكتبة وهبه ، ط ٦ ، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م .

(٣٢) دراسة الصوت اللغوي، د/ أحمد مختار عمر، ط : عالم الكتب – القاهرة – ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م.

(٣٣) دلائل الإعجاز، للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة –دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة ١٤١٣ هـ –١٩٩٢م.

(٣٤) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ، لابن علان الصديقي ، اعتنىٰ بها: خليل مأمون شيحا، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م.

(٣٥) الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة بعلم مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها وألقابها لأبي محمد مكي، ت : أحمد حسن فرحات ، ط: دار عمار ، الأردن ، ط ٣ ، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م.

(٣٦) زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولىٰ – ١٤٢٢ هـ

(٣٧) سبل الهدىٰ والرشاد، في سيرة خير العباد، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م.

(٣٨) سنن ابن ماجه. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسىٰ البابي الحلبي.

(٣٩) سنن الترمذي تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

(٤٠) سنن الدارقطني، حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

(٤١) سنن النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ – ١٩٨٦.

(٤٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري د/ محمد أبو موسي، مكتبة وهبة. ط أولىٰ ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

(٤٣) شرح أحاديث من صحيح مسلم ، دراسة في سمت الكلام الأول ، د/ محمد أبو موسىٰ ، مكتبة وهبة، ط أولىٰ ، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م.

(٤٤) شرح الأربعين النووية ،عطية بن محمد سالم .

(٤٥) شرح بلوغ المرام، عطية بن محمد سالم، المفاضلة بين مكة والمدينة ، مصدر الكتاب : دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية: http://www.islamweb.net

(٤٦) شرح التصريح علىٰ التوضيح للشيخ / خالد الأزهري ، وبهامشه حاشية العلامة يس ، طبعة عيسىٰ الباب الحلبي.

(٤٧) شرح حصن المسلم من أذكار الكتاب والسنة للقحطاني ، شرحه : مجدي بن عبد الوهاب الأحمد .

(٤٨) شرح الزرقاني علىٰ الموطأ ، لـ محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري: ، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة ، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

(٤٩) شرح سنن أبي داود ، عبد المحسن بن حمد بن عبد المحسن بن عبد الله بن حمد العباد البدر ، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net

(٥٠) شرح السنة ، لأبي محمد البغوي ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ، زهير الشاويش – طبع المكتب الإسلامي – ط ١ ، ١٤٠٠ هـ .

(٥١) شرح صحيح البخاري لابن بطال، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد -السعودية، الرياض الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ -٢٠٠٣م.

(٥٢) شرح الطيبي علىٰ مشكاة المصابيح، للطيبي ،تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز (مكة المكرمة - الرياض)،الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

(٥٣) شرح كتاب الحج من صحيح البخاري، لأبي محمد بن صالح بن العثيمين

(٥٤) صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة ، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ

(٥٥) صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت

(٥٦) الصناعتين، أبو هلال العسكري ، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – بيروت، عام النشر: ١٤١٩ هـ.

(٥٧) طرح التثريب في شرح التقريب للإمام أبي الفضل العراقي: الطبعة المصرية القديمة .

(٥٨) عروس الأفراح للسبكي ضمن شروح التلخيص ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – بدون.

(٥٩) علم الأصوات اللغوية ، مناف مهدي علام ، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١ ، ١٩٩٨ م.

(٦٠) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني، دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(٦١) غريب الحديث للخطابي ، ت : عبد الكريم إبراهيم العزباوي، نشر مركز البحث العلمي، جامعة أم القرىٰ بمكة المكرمة ١٤٠٢ هـ .

(٦٢) الفتاوىٰ الكبرىٰ لابن تيمية دار الكتب العلمية ، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

(٦٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف علىٰ طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩ هـ

(٦٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب الحنبلي. ت: أ/ محمود بن شعبان بن عبد المقصود وآخرون ، مكتبة الغرباء الأثرية ، المدينة المنورة ، ط الأولىٰ ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

(٦٥) فتح المنعم شرح صحيح مسلم، أ.د/ موسىٰ شاهين لاشين ، دار الشروق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

(٦٦) في البحث الصوتي عند العرب، د/ خليل إبراهيم العطية ، منشورات دار الجاحظ ، بغداد، ١٩٨٣ م.

(٦٧) فيض القدير شرح الجامع الصغير ، للمناوي ، المكتبة التجارية الكبرىٰ – مصر، الطبعة: الأولىٰ، ١٣٥٦ هـ .

(٦٨) الكافية في علم النحو، لابن الحاجب، تحقيق: الدكتور صالح عبد العظيم الشاعر، الناشر: مكتبة الآداب – القاهرة، الطبعة: الأولىٰ، ٢٠١٠ م.

(٦٩) الكشاف للزمخشري ، شرحه وضبطه وراجعه : يوسف الحمادي ، الناشر : مكتبة مصر ، بدون .

(٧٠) كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، للشنقيطي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

(٧١) الكوكب الوهَّاج والرَّوض البَهَّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، جمع وتأليف: محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمي العَلَوي الهَرَري الشافعي، مراجعة: لجنة من العلماء برئاسة البروفيسور / هاشم محمد علي مهدي ، المستشار برابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة، دار المنهاج - دار طوق النجاة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

(٧٢) لسان العرب، لابن منظور ، دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة - ١٤١٤ هـ .

(٧٣) لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح، لعبد الحق بن سيف الدين بن سعد الله البخاري الدِّهلوي الحنفي ، تحقيق وتعليق: الأستاذ الدكتور تقي

الدين الندوي، دار النوادر، دمشق – سوريا، الطبعة: الأولىٰ،١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤م.

(٧٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة.

(٧٥) المجازات النبوية ، للشريف الرضي ، شرح طه عبد الرءوف ، مطبعة الحلبي ، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .

(٧٦) مجموع الفتاوىٰ ورسائل فضيلة الشيخ/ محمد بن صالح العثيمين، دار الثريا للنشر، ط ١ ، ١٤٣٠ هـ .

(٧٧) المختصر في أصوات اللغة العربية ، دراسة نظرية وتطبيقية ، د/ محمد حسن جبل، مكتبة الآداب ، ط ١، ١٩٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

(٧٨) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للمباركفوري ، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء - الجامعة السلفية - بنارس الهند ، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤ م.

(٧٩) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح دار الفكر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

(٨٠) المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، جلال الدين السيوطي ، ت : أ / فؤاد علىٰ منصور ، دار الكتب العلمية – بيروت – ط ١ ، ١٩٩٨ م.

(٨١) مسالك العطف بين الخبر والإنشاء ، د/ محمود توفيق سعد ، مطبعة الأمانة ، ط : أولىٰ ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .

(٨٢) المستدرك علىٰ الصحيحين للحاكم ، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري، تحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١١ – ١٩٩٠.

(٨٣) مسند أبي يعلىٰ الموصلي تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث – دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٤ – ١٩٨٤م.

(٨٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل ، تعليق شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

(٨٥) مشكاة المصابيح، للتبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥م.

(٨٦) مشكل الآثار للطحاوي– طبع مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند -١٣٣٣ هـ .

(٨٧) مصابيح التنوير علىٰ صحيح الجامع الصغير، محمد بن ناصر الدين الألباني ، إعداد وترتيب: أبو محمد معتز أحمد عبد الفتاح .

(٨٨) المعجم الأوسط، أبو القاسم الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين – القاهرة.

(٨٩) معجم البلدان، لابن ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥ م.

(٩٠) المعجم الكبير، للطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية.

(٩١) المعجم الوافي في أدوات النحو العربي ، د/ علىٰ توفيق الحمد ، أ/ يوسف جميل الزغبي، دار الأمل – الأردن – ط ٢ ، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م.

(٩٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانىٰ. تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان.

(٩٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي ،حققه وعلق عليه وقدم له: محيي الدين ديب ميستو - أحمد محمد السيد - يوسف علي بديوي - محمود إبراهيم بزال، (دار ابن كثير، دمشق - بيروت)، (دار الكلم الطيب، دمشق - بيروت)، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

(٩٤) مناهج البحث في اللغة ، د/ تمام حسان ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط ٢ ، ١٣٩٤ هـ – ١٩٧٤ م .

(٩٥) من بلاغة النبي (ﷺ) في بيانه عن المرأة – دراسة في الصحيحين ، د/ سعيد جمعة، رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر ، كلية اللغة العربية بالقاهرة – ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م.

(٩٦) منحة العلام شرح بلوغ المرام ، عبد الله بن صالح بن عبد الله الفوزان بترقيم المكتبة الشاملة، شبكة نور الإسلام http://www.islamlight.net

(٩٧) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢ هـ .

(٩٨) النحو الوافي ، أ / عباس حسن ، دار المعارف – مصر – ط ٣ – ١٩٧٤ م .

(٩٩) نظرات في أسلوب الإنشاء والقصر ، د/ محمد عبد الحليم شادي ، مطبعة التركي – طنطا – ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م .

(١٠٠) نظرية اللغة والجمال في النقد الأدبي ، د/ تامر سلوم– دار الحوار للنشر والتوزيع (سورية – اللاذقية)، ط : أولىٰ – ١٩٨٣ م .

(١٠١) النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوىٰ – محمود محمد الطناحي المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

(١٠٢) نيل الأوطار، للشوكاني، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، الناشر: دار الحديث، مصر، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

(١٠٣) وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفىٰ للسمهودي ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٤ ، ١٤٠٤ هـ .

فهرس الأحاديث النبوية التي قامت عليها الدراسة

م	راوي الحديث	مطلع الحديث	الصفحة
١.	أبو هريرة	إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَىٰ المَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الحَيَّةُ إِلَىٰ جُحْرِهَا	٩٥
٢.	عَبْدِ اللهِ بْنِ زَيْدٍ	إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّة ودَعَا لَهَا، وحَرَّمْتُ المَدِينَة كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّة	٨٥
٣.	أبو هريرة	صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلَّا المَسْجِدَ الحَرَامَ»	٢٠٨
٤.	أبو هريرة	لَا يَصْبِرُ عَلَىٰ لَأْوَاءِ الْمَدِينَةِ وَشِدَّتِهَا أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِي، إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ شَهِيدًا	١٩٧
٥.	أبو هريرة	اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثَمَرِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا،...	١٠٦
٦.	أَنَس بْنُ مَالِك	لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ، إِلَّا مَكَّةَ، وَالمَدِينَةَ،	١٢٦
٧.	أبو هريرة	مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ، وَمِنْبَرِي عَلَىٰ حَوْضِي	٢١٥
٨.	أبو هريرة	الْمَدِينَةُ حَرَمٌ	١٤٦
٩.	أبو هريرة	مَنْ أَرَادَ أَهْلَ هَذِهِ الْبَلْدَةِ بِسُوءٍ – يَعْنِي الْمَدِينَةَ – أَذَابَهُ اللهُ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ	١٨٤
١٠.	أبو هريرة	يَأْتِي عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ يَدْعُو الرَّجُلُ ابْنَ عَمِّهِ وَقَرِيبَهُ: هَلُمَّ إِلَىٰ الرَّخَاءِ، هَلُمَّ إِلَىٰ الرَّخَاءِ	١٤٦